مقومات الداعية الناجح

بقلم الدكتور

علي بن عمر بن أحمد بادحدح

مقدمة المؤلف

الحمد لله جعل الداعي إليه أحسن الناس قولاً ،والمجاهد في سبيله من أفضل الناس عملاً، والصلاة والسلام على أعظم من دعا باللسان، وأشجع من جاهد بالسنان، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان ، أما بعد ..

فإن الدعوة إلى الله سبب الهداية المأمول، وطريق السـعادة المـأهول، وبها يقع تـذكير الغافـل، وتحريك الخامـل، وهي مفتـاح الفهم، ومقدمة العلم، ومـدخل العمـل، وهي مهمة الأنبيـاء والمرسـلين وسـبيل أتبـاع النـبي الأمين، وشـرفها وفضـلها معلـوم، وخيرها وأثرها ملموس.

لا حاجة لبسط القـول أو التـدليل على أن الـدعوة في عالمنا المعاصر تمر بمرحلة صعبة بل عصيبة لأن هذا الأمر ظـاهر للعيـان، وتعـاني الـدعوة مشـكلات عديـدة منها العـداء الخـارجي والتكـالب العالمي الذي يسـعى إلى وأد صـوتها ومحاصـرة نشـاطها، ويهـدف إلى تشـويه صـورتها وتجـريم حملتهـا، فالـدعوة إلى الله يجعلونها عنصرية تتنافى مع الإخاء، وعصبية تتعـارض مع التسـامح، والـدعاة إلى الله يصورونهم على أنهم قساة غلاظ، لا مجـال عنـدهم لرحمة أو رأفة، هذا إضافة إلى العمل الدائب للمواجهة المباشـرة للـدعوة والدعاة .

ومن جهة أخـرى فـإن للـدعوة معانـاة من بعض حملتها أو المنتسبين إليها، فواحد يسيء من جهة جهلـه، وآخر من جهة سـوء فهمه وثـالث من جهة ضـيق أفقـه، ورابع من جهة شـدة أسـلوبه وهكذا؛ إضافة إلى وجـود بعض الخلل ونقص في العمل في صـورة الشـاملة الواعية للـدعوة بحيث تـواكب العصر بالاسـتفادة من معطياته، والتأقلم مع مستجداته، وحسن المواجهة لعقباته، وجـودة التخطيط والإعداد لمتطلباته، كما تراعى الأصول وتسـتلهم التـاريخ وتستنطق التجارب وتستفيد من الأعلام بما يجعل جذورها راسـخة، وقواعدها واضحة .

ونظـراً للظـروف الآنفة الـذكر يكـون من الـواجب إعمـال الفكر وتبادل الرأي حول السبل الكفيلة لنجـاح الـدعوة وتحقيق أهـدافها، وحمايتها من كيد الكائدين من الأعداء وجهل الجـاهلين من الأحبـاء، ومن هنا كنت كثـير التفكـير في مثل الموضـوع فكتبت حـول نجـاح

الداعية وقبـول دعوته وتـأثير شخصـيته مقـالاً نشـرته في إحـدى الصـحف، ثم في مناسـبات متعـددة تحـدثت عن عناصر نجـاح الدعوات، وما زلت أدندن حول هذه المفـاهيم والأفكـار وألقي عنها كلمات وأدوِّن فيها ملحوظات .

وهذا الكتاب الـذي بين يـديك هو صـدى وترجمة لتلك الأفكـار، وما كان ليرى النور لكثرة الأشغال، وتزاحم الأعمال، ولكنني دُعيت للمشـاركة في أحد الملتقيـات وطلب مـني إعـداد بحث بعنـوان ((مقوِّمات الداعية النـاجح)) فكـانت هـذه الصـفحات، الـتي كتبتها وأنا في ظروف صعبة أثناء انشغالي التام بالمراحل النهائية لإعـداد رسـالة الـدكتوراة، وللتوضـيح أقـول إن هـذا البحث عـددت مادتـه، ورتّبت فصـوله وأتممت صـياغته في أقل من شـهر، وكنت أود قبل طباعته أن أضـيف إليه وأزيد فيه ما اسـتجد في الـذهن من أفكـار، وما تجمّع في الموضوع من نصـوص ولكنـني تـركت ذلك لئلا تتـأخر الطباعة، ولعل ذلك يكون في طبعة قادمة بمشيئة الله تعالى .

وحيث قد وصـفت لـك- أخي القـارئ – ظـروف البحث ومـدة إعداد إضافة إلى ما هو معلوم من قصور الإنسان، لـذا فـإنني أرجو أن أحظى منك بما تراه من تصـويب لخطـأ، أو اسـتدراك لنقص، أو فوائد وزوائد تتفضل بإهدائها لي، وهذا مما يسـعدني ويثلج صـدري، كما ينفعني ويغني فكري ويزيد علمي .

وأخـيراً أرفع أجـزل الشـكر، وأعطر الثنـاء، وأعظم الحمـد، للمولى جلّت قدرته على توفيقه وامتنانه، ثم أثني بالشـكر لكل من سـاعدني في الإعـداد ونقل النصـوص وأخص منهم زوجـتي وبنـات أخي الثلاث، وأشكر دار الأنـدلس الخضـراء للنشر والتوزيع على ما قـامت به من جهـود في تصـويب النص وتصـحيح أرقـام الحواشي وحسن الإخراج، إذ كان البحث في صورته الأولى المستعجلة مليئـاً بالأخطـاء والاضـطراب، كما أشـكر من شـرفوني بمطالعة البحث عسى الله أن يجعلني عند حسن ظنهم، وأن يغفر لي ما لا يعلمون .

اللهم هذا جهد المقلِّ، وبضاعة المقصِّر تقبّلها بفضلك، وتجـاوز عن نقصـها بعفـوك . وما كـان في ذلك من إتقـان وإحسـان ففضل منك وإنعام، وما كان من خلل أو زلل فغفلة أو اسـتزلال شـيطان . فأقل – يا رب- عثرتي، واغفر زلّتي يا أرحم الراحمين .

أبو الحسن علي بادحدح

جدة 18/5/1417هـ

الفصل الأول : دلالة الموضوع وأهميته:

رأيت من المناسب الوقوف على عنوان البحث ومعرفة معاني مفرداته ودلالاته قبل الخوض في مضمون الموضوع وتفصيلاته .
عنوان البحث ((مقومات الداعية الناجح))، ومن هنا سنقف أمام مدلولات الكلمات الثلاث.

المبحث الأول : دلالة عنوان الموضوع :

أولاً : المقوّم

أصل الكلمة الثلاثي هو قَوَمَ وأحد معانية الانتصاب والعزم . معجم مقاييس اللغة (5/43) ومن أبرز الاستعمالات اللفظية بهذا الأصل((قيام)) والقيام يجئ بمعنى المحافظة والإصلاح ومنه قوله تعالى ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ لسان العرب (12/497) النساء [34] وقام الأمر: اعتدل وأقام الشيء أدامه القاموس المحيط (4/168)، وأمر قيم : أي مستقيم (المحكم لابن سيده (6/366) ، وقوام الأمر (بالكسر) نظامه وعماده (لسان العرب (12/499) ، وقيم الأمر: مقيمه، والقيم: السيد وسائس الأمر(لسان العرب12/502)، ومقوم الشيء وقوامه بمعنى واحد .
فالمراد بمقومات الداعية الناجح الأمور التي هي العماد لنجاح الداعية ليقوم بالدعوة، منتصباً لها عازماً ومحافظاً عليها، مستقيماً معتدلاً في أدائها، قائماً بشؤونها سائساً لأمورها حتى يكون قيامه بها خير قيام يتحقق به المقصود.

ثانياً: الداعية

أصل الكلمة الثلاثي (دٍعَوَ)والدعوة المرة الواحدة من الدعاء، والدعاء إلى شيءٍ ما هُو الترغيب فيه والحث عليه كما في قوله ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ يونس [25] أي يرغب في الجنة ويقال دعا يدعو فهو داعٍ والمرة منه دعوة وفي قوله تعالى ﴿وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ الأحزاب[46] أي داعياً إلى توحيد الله فالداعي هو الذي يدعو إلى أمر ما، والجمع دعاة وداعون والداعي والداعية واحد، والهاء فيه للمبالغة .
فالداعية إذن هو المؤهل القائم بترغيب الناس في الإسلام وحثهم على التزامه بالوسائل المشروعة .

وهـذا يوضح أن موضـوع الـدعوة هو الإسـلام كله عقيـدة وشـريعة وأخلاقــاً ومعاملــة، وأن المــدعوون هم جميع النــاس كل بحســبه فالكـافرون يُـدعون إلى الإسـلام، والمقصـرون يُـدعون إلى صـدق الالتزام، والعصاة يُدعون إلى ترك الذنوب والآثام وهكذا .

قال ابن تيمية في تعريف الدعوة :((والـدعوة إلى الله هي الـدعوة إلى الإيمـان به وبما جـاءت به رسـله وبتصـديقهم فيما أخـبروا به وطاعتهم فيما أمروا))(مجمـوع فتـاوى ابن تيمية (15/157) عرَّفها بعض المعاصــرين بقوله ((تبليغ الإســلام للنــاس وتعليمه إيــاهم وتطبيقه في واقع الحيــاة))(المــدخل إلى علم الــدعوة (ص/17)، وأوجز الطبري القول وأبلغ في المعنى حين قال عن الدعوة: ((هي دعــوة النـاس إلى الإسـلام بـالقول والعمـل))(تفسـير الطـبري (11/53).

تالثاً : النجاح :-

أصل الكلمة الثلاثي ((نجح)) وهو أصل يــــدل على ظفر وصــــدق وخــــير(معجم مقــــاييس اللغة (5/390) والنُّجح والنجــــاح الظفر بالشيء ونجح المـرء إذا أصـاب طلبته ونجح الأمر إذا تيسر وسـهل ورجل نجح :منجح الحاجات ورأي نجيح أي صواب (لسـان العـرب (2/612،611)، الصحاح (1/409)، القاموس المحيط (1/251) .

فالمقصود هو تحقيق غاية الـدعوة، والتوفيق لحصـول التيسـير في الدعوة وقبولها، ومعلوم أن النجاح الأتم في الدعوة هو قبول الحق والعمل بــــه، ورفض الباطل والإقلاع عنــــــه، فهو قناعة نظرية واستجابة عملية ولكن حصـول الإعـراض وعـدم القبـول ليس دليلاً على عدم نجاح الداعية إذ أن الهداية من عند الله ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهــدي من يشــاء﴾ القصص [56] ونعلم حــديث المصـطفى صـلى الله عليه وسـلم : ((يـأتي النـبي ومعه الرجل والنـبي ومعه الـرجلان والنـبي وليس معه أحـد)) أخرجه البخـاري ،كتاب الطب، باب: من كوى أو كوى غيره (10/155)، ومسلم في كتاب الإيمان ،باب: الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (1/199) وهـذا قطعـاً لا يـدل على عـدم نجـاح هـؤلاء الأنبياء وإنما يدل على عـدم وجـود القابلية عند المـدعوين وطمس الله لبصائرهم وطبعه على قلوبهم .

فالنجــاح إذن هو القيــام بــالواجب على الوجه الأكمل وكثــيراً ما تتحقق به النتائج وقد تتخلف لحكمة عند الله . وبهـذا يتضح مـدلول

عنوان الموضـوع ((مقومـات الداعية النـاجح)) وأن المـراد تسـليط الضـــــــوء على الأسس اللازم توافرها للداعية في شخصـــــــيته وممارسـاته ومفاهيمه الـتي تـؤدي إلى حصـول الهداية وتحقق أثر الدعوة.

المبحث الثاني : أهمية الموضوع :

مما يتقدم عرفنا أن الموضوع يتعلق بما يقـوم بالداعية من صـفات ومهارات يتحقق بها هـدف الـدعوة وتحصل الاسـتجابة، ولا شك أن الاسـتجابة للداعية ثمــرة عظيمة لأنه مبلغ عن الله جل جلاله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، ومقرر لأحكام الإسلام، ومــؤدي ذلك تحقق الاستجابة لله وللرسول، والالتزام بالإسـلام ولهـذا فـإن لهـذا النجـاح آثـار كبـيرة محمـودة تجعل للبحث في هـذا المجـال أهمية كبرى وإليك بعض ما ينبئ عن ذلك :

1_ الأجر الجزيل :

يقــول الحق تبــارك وتعــالى :ومن أحسن قــولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من مسـلمين فصـلت [33]ـ ، فهـذا ثنـاء لمن دعا دون ارتباط بالنتيجة فكيف إذا حصلت الاستجابة، إن الأجر حينئذ أعظم وأجزل كما أخبر عليه الصلاة والسلام في قوله: ((لأن يهـدي الله بك رجلاً واحـداً خـير لك من أن يكـون لك حمر النعم)) أخرجه البخـاري في كتـاب فضـائل أصـحاب النـبي صـلى الله عليه وسلم، باب: مناقب علي بن أبي طالب، الفتح (7/70) ومسـلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل علي بن أبي طالب (النـووي) (15/178) وهـذا في هداية الواحد فكيف بهداية الجمع من النـاس ؟ الأجر حينئذ يزداد ويتضاعف كما أرشد إلى ذلك حـديث رسـول الله صلى الله عليه وسلم القائل: ((من دعا إلى هدى فإن له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً)) أخرجه مســلم في كتــاب العلم،بــاب :من سن ســنة حســنة أو ســيئة (النــووي 16/227).

2- انتشار الخير :

إن نجـاح الداعية وانتشــار الـدعوة يزيد من انتشــار الخــير بكـثرة ملتزميه والـدعاة إليـه، والثـابتين عليـه،وعنـدما تتزايد هـذه الـدوائر ويتكاثر أفرادها تكون سبباً من أسباب رضوان الله عز وجل وتنَـزّل نصــره، وحصــول التغيــير الصــالح في الأمة ضــمن الســنة الإلهية

الماضية: ﴿إن الله لا يغير ما قوم حتى يغـيروا ما بأنفسـهم﴾ الرعـد[11] ، ومن جهة أخرى فكلما أقبل على الخـير واسـتجاب للـدعوة نفر من الناس بما يحققه الله من نجاح للدعاة فإن ذلك يـورث عند الآخرين قناعة عميقة، وحماسة قوية للمتابعة من خلال كسر حاجز التردد أو الرهبة، وخـوف التفـرد بـالالتزام ، ومخالفة التيـار العـام ، كما أن انتشار الخير يبرز صورة مشرقة للمسـلمين الملـتزمين من خلال سلوكياتهم في سائر شئون الحيـاة وهـذا له أثر مضـاعف في مزيد من الإقبال على الالتزام .

3- مغالبة الباطل:

إن كل نجــاح للــدعوة في فكر وســلوك إنســان هو هزيمة للباطل الداعي إلى طرق ومناهج الشيطان ، وإن كل وجـود فاعل للـدعوة في ميــدان من ميــادين الحيــاة هو غيظ ونكاية في أعــداء اللــه، فــــالحرص على نجــــاح الداعية في غاية الأهمية لحماية الأمة من شـــرور الباطـــل، والعمل على تحجيم آثـــاره ، وتقليل أضـــراره ، وتوهين أنصاره .

ومن المعلــوم أنه ((يجب محاربة المبــادئ الهدامة من اشــتراكية وبعثية وتعصب للقوميـات وغيرها من المبـادئ والمـذاهب المخالفة للشريعة وبذلك يصلح الله المسلمين ما كـان فاسـداً، ويَـردُّ لهم ما كان شـارداً ، ويعيد لهم مجـدهم السـالف وينصـرهم على أعـدائهم ويمكن لهم في الأرض)) مجمـوع فتـاوى ابن بـاز(1/392) ومن هنا يلــزم (التأكيد على دعــاة الإســلام وحملته للتفــرغ لكتابة البحــوث والنشــرات والمقــالات النافعة والــدعوة إلى الإســلام والــرد على أصناف الغزو الثقافي، وكشف عواره وتبيين زيفه حيث إن الأعــداء جنَّدوا كافة إمكانـــاتهم وقـــدراتهم وأوجـــدوا المنظمـــات المختلفة والوسائل المتنوعة للـدس على المسـلمين والتلـبيس عليهم فلا بد من تفنيد هذه الشبهات وكشفها وعـرض الإسـلام عقيـدة وتشـريعاً وأحكاماً وأخلاقاً عرضاً شـيقاً)) مجمـوع فتـاوى ابن بـاز (1/392)، فتــوفر أســباب نجــاح الداعية يعــني غلبة الحق وانتصــاره وهزيمة الباطل واندحاره .

4- الحماية من المفاهيم والأعمال الخاطئة:

إن التقصير في الأخذ بمقومات النجاح وأسباب الفلاح قد يؤدي إلى الفشل والإخفـــاق ويتولد من أثر ذلك بعض المفـــاهيم والأعمـــال الخاطئة ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

أ- الحكم العــام بفســاد النــاس وذلك أن بعض الــدعاة – لقلة في فهمه أو ضعف في إيمانه أو تقصير في عمله – يتوالى عليه الفشل ويلقى الإعـراض والنفـور من النـاس ،وبـدلاً من أن يصـبر أو ينقد نفسه ويغير أسلوبه، ويعالج خطأه نراه ينحي باللائمة على النـاس ، ويحكم عليهم بالفســـاد والاســـتعلاء عن الحق ، وأنهم أعـــداء لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك مما يحذر منه المصطفى صلى الله عليه وسلم في حديثه الصحيح الذي قال فيـه: ((إذا قـال الرجل : هلك النـاس فهو أهلكهم)) أخرجه مسـلم في كتـاب الـبر والصــلة والآداب، بــاب : النهي عن قــول هلك النــاس ، (النــووي 16/17).

ب- حصــول الإحبــاط واليــأس في نفــوس بعض الــدعاة لتكــرار الفشــل، وانطـوائهم بعد ذلك على أنفسـهم ،ثم اعـتزالهم النـاس وتركهم الأمر المعروف والنهي عن المنكر، وربما كان فشلهم في كثير من الأحوال ناشـئاً عن جهلهم بأسـاليب وأسـباب النجـاح في الدعوة .

الفصل الثاني : عناصر التأثير :

المبحث الأول الميل العاطفي والمحبة القلبية :

إن لمحبة تقــود إلى المتابعة للمحبــوب، وتقديمه على من ســواه ،وتلمس موافقة هــواه، ولــذا قيل في تعريف المحبة إنها ((إيثــار المحبـــوب على جميع المصـــحوب ،وقيل :موافقة الحـــبيب في المشـهد والمغيب وقيل :اتحـاد مـراد المحب ، ومـراد المحبـوب وقيـل: إيثـار مـراد المحبـوب على مـراد المحب وقيل : هي بـذلك المجهـود فيما يرضي الحـبيب)) روضة المحــبين (ص:19-21)ـ . ((والحب التـام مع القـدرة يسـتلزم حركة البـدن بـالقول الظـاهر والفعل الظـاهر فيما يظهر على البـدن من الأقـوال والأعمـال هو موجب ما في القلب ولازمه)) مجمـوع فتـاوى ابن تيمية (7/541) ولـذا فـإن صـاحب الرسـالة يتحبب إلى المـدعوين ، ويسـعى إلى كسب محبتهم له وميل قلــوبهم إليه ، لأن ذلك أعظم عــون على قبـــولهم منه واتبـــاعهم له ، وبدونه لا يحصل التـــأثير الإيجـــابي بالمتابعة ولو أقيمت الحجج ونصبت الأدلة لأن البغض للداعي يصد عن قبول دعوته وإن كانت حقاً :﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظــــاً غليظ القلب لا نفضـــوا من حولك﴾ آل عمـــران[159] فالاسـتجابة والمتابعة أعظم مقتضـيات المحبة ،وهما في الــوقت نفسه أعظم آثارها .

وإذا تمكنت المحبة فإنها تـورث تعلقـاً عجيبـاً بـالمحبوب يـدفع إلى فعل مقتضـاها من الموافقة وإن كـان في ذلك مضـرة ظـاهرة أو إعراض عن محبوبـات أخـرى هي أكـثر أهميـة، ويتحمل المحب في ذلك ما يلقي من المعارضة والملامــة، وهــذا ما يعــرف من حـــال المحبين والعشاق وهو الذي يفسر ما ملئت به سـيرهم من الأخبـار والأحــوال، وليس هــذا في عشق ومحبة الصــور المحسوسة من البشــر، بل هو واقع في المعـاني أيضـاً فكثـير من الأجـواد يعشق الجــود أعظم عشق فلا يصـبر عنه مع حاجته إلى ما يجــود بــه، ولا يقبل فيه عذل عـاذل، ولا تأخـذه فيه لومة لائم ، وأما عشـاق العلم فــأعظم شــغفاً به ، وعشــقاً له من كل عاشق بمعشــوقه)) روضة المحـــبين (ص :69)وبالجملة ((فأصل كل فعل وحركة في العـــالم من الحب والإرادة ،فهو أصل كل فعل ومبدؤه، كما أن البغض والكراهة مــانع وصـاد لكل ما انعقد بسـببه ومادتــه))جـامع الرسـائل والمسـائل (2/193).

ومما يقوي أثر المحبة من الموافقة والاتباع ((حصول اللذة والنعمة والفــرح والســرور وقــرة العين به على قــدر قــوة محبته وإرادته والرغبة فيــه)) روضة المحــبين (ص/156،155) ويلحق بــذلك أن المحبة توقد نار الشوق فيبقى القلب بالمحبوب ومطلوبه مشـغولاً، والعقل في أمـره مفكـراً (والشـوق أثر من آثـار المحبة وحكم من أحكامها فإنه ســفر القلب إلى المحبــوب في كل حــال)) تهــذيب مدارج السالكين (ص:525) .

وهكــذا نجد للمحبة أثرها العظيم في الفكر والســلوك، ((والمحبة والإرادة أصل كل دين سواء كـان دينـاً صـالحاً أو دينـاً فاسـداً فـإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة والمحبة والإرادة أصل ذلك كله)) جامع الرسائل والمسائل (2/218) ، ((وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل وهو أصل الأعمـــــال الدينية وغيرهـــــا)) المصدر السابق (2/235) علمنا أهمية هذا العنصر.

ومن منا كـان الهـوى في غـير مرضـاة الله خطـراً عظيمـاً بل هو شرك محض وألوهية باطلة كما قـال تعـالى ﴿أفـرأيت من اتخذ إلهه هـواه﴾ الجاثية [23] ، وبالجملة فعاطفة المحبة من أعظم عناصر التـأثير سـلباً وإيجابـاً ، ومن ثم كـان الحـرص على كسب القلـوب واســتجلاب المحبة في طاعة الله معينــاً على الاســتجابة للخــير، والقبـــول للـــدعوة ، وإذا وجهت المحبة لله وطاعته فـــذلك غاية عظمى ، إذ أن محبة الله ((هي المنزلة الــــــتي فيها تنــــــافس المتنافسون وإليها شخص العاملون ، وإلى عَلَمها شمر السابقون ، وعليها تفانى المحبون ، وبروح نسيمها ترّوح العابـدون ، فهي قـوت القلـوب ، وغـذاء الأرواح ، وقـرة العيـون ، وهي الحيـاة الـتي من حرمها فهو من جملة الأموات ، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمـات ، والشـفاء الـذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسـقام ، واللــذة الــتي من لم يظفر بها فعيشه كله همــوم وآلام)) تهــذيب مدارج السالكين (ص/509) ، والمقابل على الضد من ذلك ((فهو عن الخــير صــاد ، وللعقل مضــاد ، لأنه يُنتج من الأخلاق قبائحها ، ويظهر من الأفعــال فضــائحها ، ويجعل ســتر المــروءة مهتوكــاً ، ومدخل الشر مسلوكاً)) أدب الدنيا والدين (ص: 33) .

المبحث الثاني : الإقناع العقلي والحجة العلمية :

الهــوى يهــوي بصــاحبه والعقل – بــإذن الله -يعصــمه ، والعقلاء يحكمـون عقـولهم في أهـوائهم ، وهـذا تصـرف الرجـال فقد يُحب

القلب فعلاً معيناً وتهوى النفس سلوكاً محدداً ، فيعترض العقل بالنظر في البواعث ، والتأمل في العواقب ، فيكبح جماح الهوى إذ أنه ((لما كان الهوى غالباً ، إلى سبيل المهالك مورداً ، جعل العقل رقيباً مجاهداً، يلاحظ عثرة غفلته ، ويدفع بادرة سطوته ، ويدفع خداع حيلته ، لأن سلطان الهوى قوي ، ومدخل مكره خفي)) أدب الدنيا والدين (ص:35) ((وإذا كانت الدولة للعقل سالمهُ الهوى ، وكان من خدمه وأتباعه ، كما أن الدولة إذا كانت للهوى ، صار العقل أسيراً في يديه ، محكوماً عليه)) روضة المحبين (ص:10) ((وما مثل الهوى إلا كسبع في عنقه سلسلة فإن استوثق منه ضابطه كفه ، وربما لاحت له شهواته الغالبة عليه فلم تقاومها السلسلة فأفلت ، على أن من الناس من يكف هواه بسلسلة ، ومنهم من يكفه بخيط)) صيد الخاطر(ص:164) .

وربما لا تكون هناك محبة ولا ميل في النفس ابتداء ولكن الحجة والبرهان يحصل بها قناعة العقل التي تزين الفعل أو الرأي للنفس وتحببه إلى القلب ، فالقناعة لها تأثيرها الذي لا ينكر في دفع الإنسان لاتخاذ المواقف والآراء ، وممارسة الأفعال ، أو الامتناع من ذلك ، وتلك مزية العقل الراشد الذي هو من أهم البواعث ((فلا يسمي عاقلاً إلا من عرف الخير فطلبه والشر فتركه ، ومن فعل ما يعلم أنه يضره فمثل هذا ماله عقل)) مجموع فتاوى ابن تيمية (7/24) والمحبة والعقل إن اتفقا عظم الأثر وان اختلفا فمالت المحبة لما حكم العقل بفساده فمآل الأمر إلى غلبة أحدهما بقوته ، وتمكنه ، فقد يقرر العقل ضرر الفعل لكنه يضعف ويغلبه الهوى بباعث حب اللذة ، وقوة الشهوة (وهذا من الجهل الذي هو عمل بخلاف العلم حتى يقدم المرء على فعل ما يعلم أنه يضره وترك ما يعلم أنه ينفعه لما في نفسه من البغض والمعاداة لأشخاص وأفعال ، وهو في هذه الحال ليس عديم العلم والتصديق بالكلية ، لكنه لما في نفسه من بغض وحسد غلب موجب ذلك الموجب والنتيجة لا توجد عنه وحده ، بل عنه وعما في النفس من حب ما ينفعها وبغض ما يضرها ، فإذا حصل لها مرض ففسدت به أحبت ما يضرها ، وأبغضت ما ينفعها ، فتصير النفس كالمريض الذي يتناول ما يضره لشهوة نفسه له مع علمه أنه يضره)) مجموع فتاوى ابن تيمية (7/540) و ((مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة ، ويحث على الميل للشهوات عاجلاً ، وإن كانت سبباً

للألم والأذى في العاجل ومنع اللـــذات في الأجـــل)) ذم الهـــوى (ص: 13،12).
وهــذا يوضح أثر العقل وقناعته في توجيه الآراء والســلوكيات ، مع عـــدم إهمـــال أثر القلب وعاطفته ، إذ قد توافق فيقـــوى التـــأثير ويتمكن ، أو تخالف فتكون هناك المغالبة ثم الغلبة .

المبحث الثالث : القدوة الحية والنموذج المتحرك :
لا يخفى أبــداً أثر القــدوة فهي الصــورة الحية للفكــرة ، والتطــبيق العلمي للــدعوة ، والتوضــيح الجلي للحجة ، ولا شك أنها من أعظم أسباب بذر المحبة في القلوب ، ووجود القناعة في العقول ((وكثير من المــدعوين ينتفعــون بالســيرة ولا ســيما العامة وأربــاب العلــوم القاصــرة فــإنهم ينتفعــون من الســيرة والأخلاق الفاضــلة والأعمــال الصالحة ما لا ينتفعون من الأقــوال الــتي قد لا يفهمونهــا)) مجمــوع فتاوى ابن باز (3/110).
والعكس صـــحيح فلو وجـــدت المحبة ، وأقيمت الحجة ، وبـــذلت الدعوة كان لتخلف القدوة ووجود ما يعارض مقتضى الــدعوة أثــره في ضــعف التــأثير ونقص المحبة ، وزعزعة القناعة ومعلــوم ((أن التأسي بالأفعال – بالنسبة لمن يعظّم في الناس – سرٌ مبثــوث في طباع البشر ، لا يقدرون عن الانفكاك عنه بوجه ولا بحال ولا ســيما عند الاعتيــاد والتكــرار)) الموافقــات (4/248-249) ورحم الله ابن القيم حيث أبدع في بيان عكس هذه الحقيقة عندما قال : ((علمــاء الســوء جلســوا على بــاب الجنة يــدعون إليها النــاس بــأقوالهم ، ويــدعونهم إلى النــار بأفعــالهم فكلما قــالت أقــوالهم للنــاس هلمــوا قالت أفعالهم لا تســمعوا منهم ، فلو كــان ما دعــوا إليه حقــاً كــانوا أول المســتجيبين له فهم في الصـــورة أدلاء وفي الحقيقة قطـــاع الطريــق)) ولله در هــرم بن حيــان حيث حــذر من العــالم الفاسق فكتب إليه عمر رضي الله عنه يســأله عن مــراده فقــال : ((يكــون إمام يتكلم بــالعلم ويعمل بالفسق ، ويشــبه على النــاس فيضــلوا)) نزهة الفضلاء (1/329،328).
وفي كثــير من الأحيــان تكــون القــدوة الحســنة مغنية عن كثــير من أساليب الترغيب والتشويق وأسباب تحصيل المحبة ، وكــذلك تعفي من الاستكثار من الاستدلال ، وإقامة الحجة والمنــاظرة والجــدال ، إذ يتحقق من خلال القدوة الكثير من ذلك بشــكل تلقــائي وبصــورة أعمق وأثبت حيث أن القـــدوة ((تســـاعد على تكـــوين الحـــافز في المتربي دونما توجيه خارجي)) القدوة مبادئ ونماذج (ص :11) لأن

((المثال الحي المرتقي في درجات الكمال يثير في نفس البصير العاقل قدراً كبيراً من الاستحسان والإعجاب والتقرير والمحبة ، ومع هذه الأمور تتهيج دوافع الغيرة المحمودة والمنافسة الشريفة)) القدوة مبادئ ونماذج (ص:8) فيحصل التأثر والاقتداء وتكون الاستجابة قوية وهي في الوقت نفسه سهلة وتلقائية ، ((حتى إذا أحببت الاقتداء به من غير سؤال أغناك من السؤال في كثير من الأعمال)) الموفقات (4/271،270) ولله در ابن القيم حيث قال : ((إن الناس قد أحسنوا القول فمن وافق قوله فعله فذاك الذي أصاب حظه ومن خالف قوله فعله فذاك إنما يوبِّخ نفسه)) (الفوائد (ص:192) .

وبهذا تتكامل عناصر التأثير فإذا اجتمع مع محبة الفعل اقتناع العقل بثمرته وفائدته وأضيف إليهما قدوة يتمثل فيهما الفعل فإن التأثير يكون قد بلغ مبلغه .

ولا بد من التأكيد على أهمية عنصر القدوة وخطورة انعدامه حيث ((يستطيع الإنسان أن يكون عالماً جهبذاً في الكيمياء أو العلوم أو الطب أو الهندسة أو غير ذلك من العلوم التي أمرنا الله بتعلمها لتعمر الدنيا ولكن هذه العلوم لا تتطلب منا قيداً سلوكياً ، فقد تكون عالماً في أي فرع من هذه العلوم وسلوكك تبعاً لهواك ولكن هذا لا يفسد الحقيقة أنك عالم في علمك لأن النبوغ لا يضع قيداً على الأخلاق إلا علم الدين فإنك إن كنت من علمائه أو الداعين إليه أو المتدينين المخلصين لا بد أن تكون قدوة حسنة لما تدعو إليه وإلا ما استمع إليك أحد)) الدعوة قواعد وأصول (ص:111) .

ولله در القائل :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وحسب المسلم قول الله تعالى :يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقول مالا تفعلون الصف [3،2] .

الفصل الثالث : مقومات النجاح في تكوين الداعية

في هذا الفصل أسلط الضوء على المقومات الشخصية اللازمة في تكـوين الداعية ليتأهل للنجـاح في دعوته ، فالمقصـود هو بيـان ما يلزم الداعية أن يتحقق به في ذات نفسـه، وأن يوجـده ويكلمه في سـماته وصـفاته كأسـاس لا بد منه قبل أي مقومـات خارجية تتصل بالمدعوين أو بيئة الدعوة أو موضوعاتها .
وإن هذه المقومـات كثـيرة ويمكن أن يطـول الحـديث في سـردها وعرضـها وتكـون بمثابة اسـتعراض لواجبـات وآداب الإسـلام مما يفقدنا معرفة الأولويات والأهمية الكامنة في بعض المقومات ،ولـذا اجتهدت بعد التأمل والتفكير، أن أسلط الضوء على أربعة مقومـات هي الأكثر أهمية وشمولية ويندرج تحتها كثير من الصفات الأخرى .

المبحث الأول : التميز الإيماني والتفوق الروحاني :

إن التمـيز في مجـال الإيمـان عقيـدةً صـحيحةً ، ومعرفـةً جازمـةً ، وتأثيراً قوياً يعد- بلا نزاع – أهم المقومات وأولى الأولويات بالنسبة للداعية ، لكي يكـون الداعية عظيم الإيمـان بالله ، شـديد الخـوف منه ، صـــادق التوكل عليه ، دائم المراقبة له ، كثـــير الإنابة إليه ، لســانه رطب بــذكر الله ، وعقله مفكر في ملكـــوت الله ، وقلبه مستحضر للقاء الله ، مجتهد في الطاعات ، مسابق إلى الخيرات ، صوام بالنهار قوّام بالليل ، مع تحري الإخلاص التـام ، وحسن الظن بالله وهذا هو عنوان الفلاح ، وسمت الصـلاح ، ومفتـاح النجـاح ، إذ هو تحقيق لمعـــنى العبودية الخالصة لله وهي الـــتي تجلب التوفيق من الله فـإذا بالداعية مسـدد ، إن عمل أجـاد ، وإن حكم أصـاب ، وإن تكلم أفاد .

وهذا الباب واسع الجوانب متعـدد المسـتلزمات ، وحسـبي أن أبـرز أهم هذه الجوانب :-

أولاً : عظمة الإيمان بالله :

أســاس كل أمر هو تجريد التوحيد ، والبعد عن الشـــرك ولا بد أن يكون الداعية صحيح الإيمـان ، خـالص التوحيد ، عنـده من العلم ما يعرِّفه بالله وربوبيته وألوهيته وأسـمائه وصـفاته ، وأن تسـتقر هـذه المعرفة في سـويداء قلبه ، وتملك عليه أقطـار نفسه ، وتجـري مع

الدماء في عروقه ، وأن ينعكس ذلك على سائر أحواله فتنضبط به أفكـــــاره وآراؤه ، وتُحكم به كلماته وألفاظه ، وتُقـــــوَّم به أفعاله وأعماله ، ويجمع ابن القيم هـذا المعـنى في عبـارة أشـمل وأعمق حيث يقول في بيان المراد أنه ((التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة وامتثـال أمر سـيده ، واجتنـاب نهيه ، ودوام الافتقـار إليه ، واللجأ إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وعياذ العبد به ولياذه به ، وأن لا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفاً ورجـاءً ، وفيه أيضـاً أنه عبد من جميع الوجـوه : صـغيراً وكبـيراً ، حيـاً وميتـاً ، مطيعـاً وعاصـياً معافى ومبتلى ، بالروح والقلب واللسان والجوارح ، وفيه أيضـاً أن مالي ونفسي ملك لك فإن العبد وما يملك لسيده ، وفيه أيضـاً أنك أنت الذي مننت علي بكل ما أنا فيه من نعمة فذلك كله من إنعامك على عبـدك ، وفيه أيضـاً أني لا أتصـرف فيما خولتـني من مـالي ونفسي إلا بـأمرك ، كما لا يتصـرف العبد إلا بـإذن سـيده وإني لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فإن صح له شهود ذلك فقد قال إني عبدك حقيقـة)) الفوائد (ص:34،35)ـ ، ولا يتصـور للداعية نجـاح وتوفيق ، أو تمـيز وقبـول دون أن يكـون حظه من الإيمان عظيماً ((إذ كيف تـدعو النـاس إلى أحد و صـلاتك به واهية ومعرفتك به قليلة)) مع الله (ص: 188) .

وهذه الغاية العظمى تتصل أكثر شيء بأعمال القلـوب الـتي تخفى على النـــاس ولا يعلمها إلا علام الغيـــوب ، إلا أن آثـــار ذلك تظهر بوضوح في الأقوال والأفعال فإن ((عكوف القلب على الله تعالى ، وجمعيته عليه ، والخلـوة به ، والانقطـاع عن الاشـتغال بـالخلق ، والاشـتغال به وحـده سـبحانه ، بحيث يصـير ذكـره وحبه ، والإقبـال عليه في محل همـــوم القلب وخطراته ، فيســتولي عليه بـــدلها ، ويصير الهم كله به ، والخطـرات كلها بـذكره ، والتفكر في تحصـيل مراضيه وما يقرب منه ، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بـالخلق ، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبـور حين لا أنيس له ، ولا ما يفـرح به سـواه)) زاد المعـاد (2/87)ـ ، كل ذلك ينعكس على الداعية فتظهر على شخصيته آثار الإيمـان الصـحيح المتحـرك ومن أبرزها :-

1_ التحرر من عبودية غير الله :

الإيمـان قـوة عظمى يسـتعلي بها المـؤمن على كل قـوى الأرض ، وكل شهوات الدنيا ، ويصـبح حـراً لا سـلطان لأحد عليه إلا لله ، فلا يخاف إلا الله ، ولا يـذل إلا لله ، ولا يطلب إلا من الله ، ولا يأمل إلا

من الله ، ولا يتوكل إلا على الله ، وللإيمــان تــأثير كبــير في أعظم أمــرين يســيطران على حيــاة البشر وهما : الخــوف على الــرزق ، والخوف على الحياة .

أما الأول : فلا يخفى كم أذل الحرص أعناق الرجال ، وكم شـغل الناس حبُّ المال ، وكم باع أناس مبـادئهم ، وخـانوا أمتهم وتنكـروا لماضيهم لما ذهب الذَّهب بأبصـارهم وسـبى قلـوبهم ، أما المـؤمن فحقـائق الإيمـان تملؤ قلبه فلا يتـأثر بشـيء من هـذا لأن في قلبه قول الحق جل وعلا ﴿وفي السماء رزقكم وما توعـدون﴾ الـذاريات[22] ولأنه يعلم من بيـده الـرزق ﴿فـابتغوا عند الله الـرزق واعبـده واشــكروا له﴾ العنكبــوت[17] وأنه لا يملك أحد من البشر من ذلك شــيئاً ﴿إن الــذين تعبــدون من دون الله لا يملكــون لكم رزقـــاً﴾ العنكبـوت [17] وفـوق ذلك يعلم حقيقة الـرزق في الـدنيا وقيمته المحدودة ويرتبط بقوله تعالى ﴿ورزق ربك خــير وأبقى﴾ طه [131] وقوله ﴿إن هذا لرزقنا ماله من نفـاد﴾ ص [54] وحـديث المصـطفى صلى الله عليه وسلم : ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء)) أخرجه الترمذي كتاب الزهد ، باب ما جاء في هوان الـدنيا على الله ، حـديث رقم (2320) ومن هـذه المنطلقات الإيمانية قال الشافعي رحمه الله :

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبراً
همتـي همة الملـوك ونفسي نفس حر ترى المذلة قهراً

وأما الثــاني : فيقين المـؤمن أن المـوت والحيـاة بيد الله ، وأنه لا ينجي حذر من قدر ، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضـروه بشـيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه ، وأن المـوت ليس بالإقـدام وأن الســلامة ليست بالإحجــام بل كما قــال تعــالى ﴿أينما تكونــوا يدرككم الموت ولو كنتم في بـروج مشـيدة﴾ النسـاء [78] ومن هنا يتميز المؤمن عن غيره ، فبينما ترتجف القلوب وتنسكب الــدموع ، وتعلو التوســلات ، وتقــدَّم التنــازلات ، حرصــاً على الحيــاة ، نجد المؤمن كالطود الشامخ يهتف مع خبيب بن عدي قائلاً :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

ويتذكر قول علي بن أبي طالب :

أي يوميَّ من الموت أفر يـوم لا يقـدر أو يوم قُدر
يوم لا يقدر لا أرهبـه ومن المقدور لا ينجو الحذر

ويتذكر المؤمن حـال أنس بن النضر يـوم شـمَّ رائحة الجنة في أحُد فمضى في شوق إلى عناق الموت ، ويـدرك عمق إيمـان عمـير بن الحمام عندما اسـتطال – لأجل أكل تمـرات – هـذه الحيـاة ، ويقف على سرّ الإيمـان العظيم عنـدما يهتف الشـهيد قـائلاً : فـزت ورب الكعبة ، ولا ينسى خـبر سـحرة فرعـون لما آمنـوا وهـدَّودا بـالموت هتفوا قائلين اقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الـدنيا طه [72] .

2- الخشية من الله :

وهي من أعظم آثار الإيمان وأبرز أوصاف المؤمنين الذين يخشون ربهم بـالغيب وهم من السـاعة مشـفقون الأنبيـاء [49]ـ الـذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله الأحـزاب [39] وقـدوتهم في ذلك النـبي صـلى الله عليه وسـلم حيث يقـول : ((إني لأخشاكم لله وأتقاكم له)) أخرجه البخاري في كتاب النكـاح ، كتـاب الـترغيب للنكـاح (الفتح :9/104)ـ ، ((والخشـية أخص من الخـوف ، فهي مقـرون بمعرفـة)) تهـذيب مـدارج السـالكين (ص: 269) وعنـدما تعمر الخشـية والخـوف قلب الداعية المـؤمن يتمـيز عن الغافلين والعابثين لأن الخـوف يحـول بين صـاحبه وبين محـارم الله ، فقهُ ذلك أنطق إبراهيم بن سفيان بالحكمة فقال: ((إذا سكن الخوف القلوب أحـرق مواضع الشـهوات منها وطـرد الـدنيا عنهـا)) تهذيب مدارج السالكين (ص:270) وقال الفضيل بن عيـاض :((من خاف الله لم يضره أحد ، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحــد)) نزهة الفضلاء (2/661) وهذه الخشـية دافعة للطاعة ((وما اسـتعان عبد على دينه بمثل الخشية من الله)) نزهة الفضـلاء (1/513) والداعية له رتبة عليا من الإيمـان ((تجعل خشـيته لله أسـرع إلى فـؤاده من أي رهبة تخامر نفسه أمام ذي سلطان)) مع الله (ص:190) .
والخشـية أسـاس مراقبة الله تـرقي بـالمؤمن إلى درجة الإحسـان وأن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه .ـ

ثانياً : الإخلاص لله :

((الإخلاص لله روح الدين ولباب العبادة وأساس أي داع إلى اللــه)) مع الله (ص:201) وهو ((في حقيقته قوة إيمانية ، وصراع نفسي ، يـــدفع صــاحبه – بعد جـــذب وشد – إلى أن يتجـــرد من المصـــالح الشخصـية ، وأن يـترفع عن الغايـات الذاتية ، وأن يقصد من عمله

وجه الله لا يبغي من ورائه جـــزاءً ولا شـــكوراً)) صـــفات الداعية النفسية (ص:12) فالمخلصون ((أعمالهم كلها لله ، وأقــوالهم لله ، وعطاؤهم لله ،ومنعهم لله ، وحبهم لله ، وبغضهم لله ، فمعــاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده)) تهذيب مدارج السالكين (ص: 68) والإخلاص للداعية ألزم له من كل أحد وأهميته تفوق كل أمر ، وهو اسـتجابة لأمر الله ﴿وما أمـروا إلا ليعبـدوا الله مخلصـين له الـدين﴾ البينة [5] ، وفي تركه خـوف من الحرمــان بــرد الأعمــال ومنع التوفيق لأن الله جل وعلا قــال في الحــديث القدسي ((أنا أغــنى الشركاء عن الشـرك من عمل عملاً أشـرك فيه معي غـيري تركته وشـركه)) أخرجه مســلم ، كتـاب الزهد ، بـاب الريـاء (النـووي)(18/115) وفيه وقاية من عــذاب الآخــرة الــذي توعد به الرســول الكريم صـلى الله عليه وسـلم من عمل بلا إخلاص عنـدما ذكر أول ثلاثة تسعّر بهم النار وهم قارئ وغني ومجاهد لم يقصدوا بأعمـالهم وجه الله (أخرجه مســلم ، كتــاب الإمــارة ، بــاب من قاتل للريــاء والسمعة واستحق النار (عبد الباقي)(3/1514،1513).

فلا بد والأمر كذلك من تحري الإخلاص والحذر مما يضــاده فإنه ((لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المــدح والثنــاء والطمع فيما عند النـاس إلا كما يجتمع المـاء والنـار والضب والحـوت)) الفوائد (ص: 195) ((والمفـــروض أن الداعية العـــارف بالله قد بلغ من منـــازل الإيمــان منزلة تجعل رجــاءه في الله وحــده يســبق كل رغبة إلى مخلـــوق)) مع الله (ص:190) والإخلاص يجعل للكلمـــات حيوية مؤثرة ، وللدعوة قولاً سريعاً .

ثالثاً : حسن الصلة بالله :

والمقصود بها إقامة الفرائض ، والاستكثار من النوافل ، والاشـتغال بالأذكـــار ، والمداومة على الاســتغفار وكـــثرة التلاوة القرآنية ، والحرص على المناجاة الربانية ، وغير ذلك من القربات والطاعـات ، لأن العبادة زاد يتقوى به الداعية ، فالصلاة صلة بينه وبين مـولاه ، ولا منـاص من تمـيزه في حرصه عليها ، وتبكـيره إليها ، وخشـوعه فيها ،وتطويله لها ، وشـــهودها مع الجماعة وله في ذلك قـــدوات سالفة فسعيد بن المسـيب ((ما فاتته الصـلاة في الجماعة أربعين سـنة)) نزهة الفضـلاء (1/370) ((والربيع بن خـثيم كـان يقـاد إلى الصلاة وبه الفالج ، فلما روجع في ذلك قـال : إني أسـمع حي على الصــلاة فــإن اســتطعتم أن تأتوها ولو حبــواً)) نزهة الفضــلاء (1/381) ، ولست أدري كيف يكون داعية من يتخلف عن الصلوات

في الجماعـــات ســـيما في الفجر والعصر مع ما ورد في أدائهما خصوصـاً من تعظيم الأجر ، وما جـاء في فواتهما من التحـذير من الإثم والوزر ، وقد تـرخص كثـيرون في ذلك فلا يهمهم التبكـير ، ولا يعنيهم إدراك التكبير ، ولست أدري ما يقول هؤلاء إذا سمعوا مقالة إبـراهيم بن زيد الـتيمي : ((إذا رأيت الرجل يتهـاون في التكبـيرة الأولى فاغسل يدك منـه)) نزهة الفضـلاء (1/468) وبمـاذا يعلقـون إذا علمـوا أن سـعيد بن عبد العزيز التنـوخي ((كـان إذا فاتته صـلاة الجماعة بكى)) نزهة الفضلاء (2/611) والحقيقة أن الأمر في هــذا يطــول والتفريط فيه من بعض الــدعاة كثـير وخطــير ، ونصــوص الكتاب والسنة أشهر من أن تذكر.

والذكر عظيم المنزلة فهو ((منشور الولاية الذي من أعطية اتصل ، ومن منعه عُزل ، وهو قوت قلوب القوم الذي مـتى فارقها صـارت الأجسام لها قبوراً ، وعمـارة ديـارهم الـتي إذا تعطلت عنه صـارت بوراً ، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق ، وماؤهم الــذي يطفئـون به التهـاب الحريق ، ودواء أسـقامهم الـذي مـتى فـارقهم انتكست منه القلوب)) تهذيب مدارج السالكين (ص:463) ، والذكر هو العبـادة المطلوبه بلا حد يُنتهي إليه ﴿يا أيها الـذين آمنـوا اذكـروا الله ذكراً كثيراً﴾ الأحزاب [41] وبلا وقت تختص به ﴿ومن آناء الليل فسبح وأطـراف النهـار لعلك ترضى﴾ طه [130] وبلا حـال تسـتثني منه ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنـوبهم﴾ آل عمـران [91]، والــذاكرون هم الســابقون إشـارة إلى حـديث أبو هريـرة : ((سبق المفـردون ، قـالوا : وما المفـردون يا رسـول الله ؟ قـال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات)) أخرجه مسـلم ، في كتـاب الـذكر والدعاء ، بـاب الحث على ذكر الله تعـالى (النـووي)(17/4)ـ ، في رياض الجنة يرتعون إشارة إلى حديث أنس بن مالك : ((إذا مـررتم بريــاض الجنة فــارتعوا ، قــالوا : وما ريــاض الجنة ؟ قــال : حلق الــذكر)) أخرجه الترمــذي ، وقــال حــديث حسن غــريب . (انظر الترغيب والترهيب 2/ـ 408،407)، وبوصية المصطفى صـلى الله عليه وسلم يعلمون (إشارة إلى حـديث عبد الله بن بشر ، أن رجلاً قال : ((يا رسول الله إن شـرائع الإسـلام قد كـثرت علي فـأخبرني بشيء أتشبث به ؟ قال : لا يزال لسانك رطباً من ذكر اللــه)) رواه الترمــذي وقــال حــديث حسن غــريب (انظر الــترغيب والــترهيب 2/394)ـ ، وبمباهاة الملائكة يسـعدون ((إشـارة إلى حـديث النـبي صلى الله عليه وسلم لمن جلسوا يذكرون الله ، حيث قـال : ولكنه

أتاني جبريل وأخبرني أنَّ الله عز وجل يباهي بكم الملائكة)) أخرجه مسـلم، في كتـاب الـذكر ،بـاب فضل الاجتمـاع على تلاوة القـرآن والذكر (النووي)(17/23).
والاستغفار من أعظم الأذكار وكان المصطفى عليه الصلاة السـلام يستغفر في اليوم والليلة سـبعين مـرة .أخرجه البخـاري في كتـاب الـدعوات ، بـاب اسـتغفار النـبي صـلى الله عليه وسـلم في اليـوم والليلة (الفتح11/101) وأخـبر أمته أن ((من لـزم الاسـتغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجـاً ، ومن كل هم فرجـاً ورزقه من حيث لا يحتسـب)) أخرجه أبو دواد في كتـاب الصـلاة ، بـاب الاسـتغفار (1518)(2/178) ولـذا فلا بد للداعية من الأذكـار ليحـيي الله قلبه ، ولا بد له من الاستغفار ليمحو الله ذنبه .
وأعظم الذكر تلاوة القرآن الـتي هي من أقـوى الصـلات بالله الـتي يحتاجها الدعاة ، ولها أثرها في الواقع الدعوة والحياة ((ومن الصلة بالله إعـــزاز كتابه وإدمـــان تلاوته وتـــدبر معانيه ، وعقد مقارنة مسـتمرة بين المثل الـتي يحـدو العـالم إليها ، والواقع الـذي ثـوى الناس فيه لتكون هذه المقارنة حـافزاً على تـذكير النـاس بـالحق ، وقيادتهم إلى الله، وتأهيلهم . وقرب الداعية من كتاب الله يجب أن يكون متعة لروحه وسكناً لفـؤاده وشـعاعاً لعقلـه، ووقـوداً لحركته ومرقاة لدرجته)) مع الله (ص:191) والصلة بالقرآن موجبة للتمـيز كما قـال ابن مسـعود رضي الله عنـه:((ينبغي لحامل القـرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ،وبنهاره إذا الناس مفطـرون ،وبحزنه إذا النـاس يفرحـون ، وببكائه إذا النـاس يضـحكون ، وبصـمته إذا النـاس يخوضـون ، وبخشـوعه إذا النـاس يختـالون ، وينبغي لحامل القـرآن أن يكـون باكيـاً محزونـاً حكيمـاً حليمـاً سـكيناً ، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكـون جافيـاً ولا غـافلاً ولا سـخاباً ولا صـياحاً ولا حديداً)) الفوائد (ص:192) .
والخلاصة أن التمـيز الإيمـاني من أعظم أسـباب نجـاح الداعية ، إذ ليس النجاح بفصاحة اللسان ولا قوة البرهان ولا كثرة الأعوان ، بل هو مع ذلك وقبل ذلك بتوفيق الله الــذي يخص به أوليــاءه ولا شك ((أن الدعاة الذين يكرسون أوقاتهم لله لدفع الناس إلى سـبيله ، لا بد أن يكون شعورهم بالله أعمق ، وارتباطهم به أوثق ، وشغلهم به أدوم ، ورقابتهم له أوضـح)) مع الله (ص:190) ونحن نريد روحانية إيجابية ، لا انعزالية ترتكز على العبادات والأوراد بعيـداً عن التفاعل مع الحيـــاة وما فيها من همـــوم ومعانـــاة ، نريد ((روحانية إيجابية

تحفـزه للتضـحية وتسـتهدف الشـهادة وتعمق الحاجة إلى رضا الله لتغـدو هاجسـاً يوميـاً يلاحق كل مـواطن رضـاه في عملية تـدقيق ومعاناة تجعله يعيش مع عقيدته في أفكاره ومشاعره وفي علاقاته ومطامحه ، فتتحـول في داخل ذاته إلى هم يـومي متحـرك يـراقب الأشـــياء من خلاله ، ويحـــدد موفقه منها على أساســـه)) الحركة الإسلامية هموم وقضايا (ص: 14) .

وهناك تقصير ظـاهر لـدى بعض الـدعاة والجماعـات الإسـلامية في العناية بهذا الجانب المهم وكثيراً ما يكون ذلك بسبب تضخم العناية بــالجوانب الفكرية والسياسـية وغيرها ، ولـذا صـار يـرى بعض من ينتسبون إلى الدعوة وهم مقصرون في معرفتهم وصلتهم بالله .

المبحث الثاني : الرصيد العلمي والزاد الثقافي :

وهذا أساس لا بد منه حتى يجد الناس عند الداعية إجابة التساؤلات ، وحلول المشكلات إضافة إلى ذلك هو العدَّة التي بها يعلِّم الداعيةُ الناس أحكام الشرع ، ويبصـرهم بحقـائق الواقع ، وبه أيضـاً يكـون الداعية قادراً على الإقنـاع وتفنيد الشـبهات ، ومتقنـاً في العـرض ، ومبدعاً في التوعية والتوجيه .

((وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامـات العبد وأجلها وأفضـلها فهي لا تحصل إلاَّ بــالعلم الــذي يــدعو به وإليه ،ولا بد من كمــال الدعوة من البلوغ في العلم على حد يصل إليه السعي)) مفتاح دار السعادة(1/154) .

والخوض في غمار الدعوة وميادينها فيما لا علم للداعي به ، تترتب عليه آثـار وخيمة لأن ((العامل على غـير علم كالسـالك على غـير طريق ، والعامل على غير علم ما يفسد أكـثر مما يصـلح)) مفتـاح دار السـعادة (1/130) ((ولا يكــون عمله صــالحاً إن لم يكن بعلم وفقه ، وكما قـــال عمر بن عبد العزيز : ((من عبَد الله بغــير علم كـان ما يفسد أكـثر مما يصـلح))، وكما في حـديث معـاذ بن جبل رضي الله عنه ((العلم إمـام العمل والعمل تابعـه)) ، وهـذا ظـاهر فــإن القصد العمل ، والعمل إن لم يكن بعلم كـــان جهلاً وضـــلالاً واتباعاً للهوى)) مجموع فتاوى ابن تيمية (28/136،135) .

وطبيعة مهمة الداعي خطيرة ونظـرة النـاس إليه ، واعتـدادهم به ، وأخـذهم عنه يجعل أمر العلم ((أشد ضـرورة للـداعي إلى الله لأن ما يقــوم به من الــدين ، ومنســوب إلى رب العــالمين ، فيجب أن يكون الداعي على بصيرة وعلم بما يدعو إليه ، وبشــرعية ما يقوله

ويفعله ويتركه ، فإذا فقد العلم المطلوب اللازم له كـان جـاهلاً بما يريـده ووقع في الخبط والخلط ، والقـول على الله ورسـوله بغـير علم ، فيكون ضرره أكثر من نفعه ، وإفساده أكثر من إصـلاحه وقد يـأمر بـالمنكر وينهى عن المعـروف لجهله بما أحلّه الشـرع وأوجبه وبما منعه وحرَّمه)) أصول الدعوة (ص:135) ومن أكثر الأمور التي يفتن بها عـوام النـاس التصـرف الخـاطئ الـذي يصـدر من بعض الجهلاء من أهل العبـادة والصـلاح لأن ((النـاس يحسـنون الظن به لعبادته وصـلاحه فيقتـدون به على جهلـه)) مفتـاح دار السـعادة (2/12)، فهذا يقتدون به من أثر حاله ، فكيف بالداعية الذي يوجههم بحاله ومقاله ، إن افتتانهم به أكبر وأشد.

فضل العلم وثمرته :

لابد للداعية أن يوقن أن ((العلم أشرف ما رغب فيه الراغب ، وأفضل ما طلب وجد فيه الطـــالب ، وأنفع ما كســـبه واقتنـــاه الكاسـب)) أدب الـدنيا والـدين (ص:40) والآخذ بـالعم آخذ بالبداية الصحيحة إذ العلم مقدم على القول والعمل كما قال تعالى ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾ محمد [19] .

وبالعلم يحوز الداعية الرفعة في الميزان الربـاني وفق قوله تعـالى ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجـات﴾ المجادلـة[11]، والسعي في طلب العلم تحقيق للغاية التي أرادها الله ووجه إليها في قوله ﴿فلــولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهــوا في الـدين ولينـذروا قـومهم إذا رجعـوا إليهم لعلهم يحـذرون﴾ التوبة [122] ،فقد جعل الله الأمة فرقـتين ((أوجب على إحـداهما الجهـاد في سـبيله وعلى الأخـرى التفقه في دينه ، لئلا ينقطع جميعهم عن الجهــاد فتنــدرس الشــريعة ، ولا يتــوفرا على طلب العلم فتغلب الكفــار على الملة ،فحــرس بيضة الإســلام بالمجاهــدين ، وحفظ شــريعة الإيمــان بــالمتعلمين ، وأمر بــالرجوع إليهم في النــوازل ومسـألتهم عن الحـوادث فقـال عز وجل ﴿فاسـألوا أهل الـذكر إن كنتم لا تعلمـون﴾ النحل [43] وقـال تعـالى ﴿ولو ردوه إلى الرسـول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ النحل [43] .

وإذا ســـلك الداعية طريق العلم حظي بالخيرية الربانية الثابتة في حديث الرسول صـلى الله عليه وسـلم ((من سـلك طريقـاً يلتمس فيه علماً سـهّل الله به طريقـاً من طـرق الجنـة)) سـنن أبو داود ، كتاب العلم ، باب الحث على العلم (3641)(4/57) .

وإذا نال الداعية حظاً وافياً من العلم واندرج في سـلك طلبة العلم فإنه يكـون في مجتمعه نبراسـاً يُهتـدى به كما قـال ابن القيم عن الفقهاء ((إنهم يكون الأرض بمنزلة النجوم في السماء ، بهم يُهتدى في الظلمـاء ، حاجة النـاس إليهم أعظم من حـاجتهم إلى الطعـام والشـراب ، وطـاعتهم أفـرض عليهم من طاعة الأمهـات والآبـاء)) إعلام الموقعين (1/9) ، وعندما يتحرك الداعية ناشراً علمه ساعياً بين الناس بالإصلاح ناعياً عليهم الغفلة والفساد فإنه يحظى بشرف الوصف الذي ذكره الإمام أحمد حين قـال :((الحمد لله الـذي جعل في كل فـترة من الرسل بقايا من أهل العلم يـدعون من ضـلَّ إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضـال تائه قد هَـدوه ، فما أحسن أثـرهم على النـاس وما أقبح أثر النـــاس عليهم)) إعلام المـــوقعين (1/9)ـ ، وأهل العلم والبصيرة من الدعاة شهد التاريخ أنهم ((هم من اهتـدى بهم الحـائر ، وســار بهم الواقف ، وأقبل بهم المعــرض ، وكمُل بهم النــاقص ، ورجع بهم النــاكص ، وتقــوى بهم الضــعيف)) مــدارج الســالكين (3/304) .

ولأهل العلم في بيـان شـرف العلم وفضـيلته مقـالات رائعة منها : قــول الخطيب في الفقيه والمتفقه : ((قد جعل الله العلم وســائل أوليائه ، وعصم به من اختــــار من أصــــفيائه)) الفقيه والمتفقه (2/71).

وأسند قبل ذلك عن محمد بن القاسم بن خلاد قال : ((يقـال العقل دليل الخـــير ، والعلم مصـــباح العقل ، وهو جلاء القلب من صـــدى الجهل ، وهو أقنع جليس ، وأسرُّ عشيق ، وأفضل صـاحب وقـرين ، وأزكى عقــــدة ، وأربح تجــــارة ، وأنفع مكسب ، وأحسن كهف ، وأفضل ما اقتني لدنيا واستظهر به لآخرة ، واعتصم به من الـذنوب ، وسكنت إليه القلوب ، يزيد في شرف الشريف ، ورفعة الرفيع ، وقـدر الوضـيع ، أنس في الوحشة ، وأمن عند الشـدة ، ودال على طاعة الله تعالى وناه عن المعصـية ، وقائد إلى رضـوانه ، ووسـيلة إلى رحمته)) الفقيه المتفقه (2/71).

وقـال أبو هلال العسـكري في ((الحث على طلب العلم)) : ((فـإذا كنت – أيها الأخ الكـريم – تـرغب في سـمو القـدر ، ونباهة الـذكر ، وارتفاع المنزلة بين الخلق ، وتلتمس عزاً لا تثلمه الليالي والأيــام ، ولا تتحيَّفه الدهور والأعوام ، وهيبة بغير سـلطان ، وغـنى بلا مـال ،

ومنعة بغـير سـلاح ، وعلاء من غـير عشـيرة ، وأعوانـاً بغـير أجر ، وجنُـداً بلا ديـوان وفـرض ، فعليك بـالعلم فاطلبه في مظانه تأتك المنـافع عفـواً وتلق ما يعتمد منه صـفواً)) الحث على طلب العلم (ص:43) .

وقال ابن إسحاق بن أبي فـروة : ((أقـرب النـاس من درجة النبـوة أهل العلم وأهل الجهاد فأما أهل العلم فدلوا الناس على ما جـاءت به الرسل ، وأما أهل الجهـاد فجاهـدوا على ما جـاءت به الرسـل)) الفقيه والمتفقه (1/35).

العلم المطلوب :

ليس بالضرورة أن يكون الداعية عالماً جامعـاً لكل العلـوم ، وليس من شـرط الـدعوة تمـام العلم واسـتيفاء قـدر بعينه منه ، وليست الـدعوة مختصة بالعلمـاء وحـدهم دون غـيرهم بل كل من علم من أحكـام الإسـلام شـيئاً دعا إليه ،وكل من علم منكـراً وعـرف دليل حرمته نهى عنه ، وإذا لم يكن الأمر كـذلك تعطلت الـدعوة ومـات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسبق أن أوضـحنا أن الـدعوة ((مشـــروط لها العلم ولكن العلم ليس شـــيئاً واحـــداً لا يتجـــزأ ولا يتبعض ، وإنما هو بطبيعته يتجـــزأ ويتبعض فمن عَلم مســألة وجهل أخرى فهو عالم بـالأولى جاهل بالثانية ، وبالتـالي يتـوفر فيه شـرط وجوب الدعوة إلى ما علم دون ما جهل ، ولا خلاف بين الفقهـاء أن من جهل شـيئاً أو جهل حكمه أنه لا يـدعو إليه لأن العلم بصـحة ما يدعو إليه الـداعي شـرط لصـحة الـدعوة ، وعلى هـذا فكل مسـلم يـدعو إلى الله بالقـدر الـذي يعلمـه)) أصـول الـدعوة (ص:302) ، وفعل الصحابة الكرام يدل على ذلك ، فالطفيل بن عمـرو الدَّوسي ، وأبو ذر الغفـاري ، وهما من الســابقين إلى الإســلام قاما بمهمة الــدعوة بما معهما من أصل التوحيد وبعض ما نــزل من القــرآن ، وهـدى الله بهما فئامـاً من النـاس ، ولم يصل أبو ذر الغفـاري إلى المدينة ويلحق بالرسول صلى الله عليه وسلم إلاَّ في العام السابع للهجرة وكان معه قبيلة أسلم ، وقبيلة غفـار قـدم بهما مسـلمتين ، ونحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسـلم قـال : ((بلغـوا عـني ولو آية)) أخرجه البخاري في كتـاب الأنبيـاء ، بـاب ما ذكر عن بـني إسـرائيل (الفتح)(6/572) وقـال أيضـاً :((نضر الله امـرءاً سـمع مقـالتي فوعاها وحفظها وبلَّغها ، فـربِّ حامل فقه إلى من هو أفقه

منـه)) أخرجه الترمـذي في كتـاب العلم ، بـاب : ما جـاء في الحث على تبليغ السماع (2658)(5/34).

ومع هذا البيان إلاّ أننا ندرك أن الداعية وقد تصدر للوعظ والإرشاد والتربية والتعليم مطالب بقـدر من العلم والثقافة يعينه على مهمته ويؤهله لها وتلخيص المهم من ذلك يتركز في جانبين :-

الأول : الجانب الشرعي :

لا بد للداعية أن يعرف ((أن أولى العلوم وأفضلها علم الــدين ، لأن الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون)) أدب الـدنيا والـدين (ص: 44)ـ ، وهنا لا بد أن تفــرق بين ما يجب تعلّمه ولا يسع أحــداً أن يجهله ، وبين ما يكون تعلمه فرضاً كفائياً ، وقد قيل في بيان معنى كون العلم فريضة على كل مسـلم أنه ((على كل أحد أن يتعلمه ما لا يســعه جهله من علم حاله ... وقــال ابن المبــارك : ((إنما طلب العلم فريضة أن يقع الرجل في شيءٍ من أمر دينه يسأل عنه حتى يعلمــه)) الفقيه المتفقه (1/45) ثم أوضح الخطيب البغــدادي ذلك فقال :((فـواجب على كل أحد طلب ما تلزمه معرفته مما فـرض الله عليه على حسب ما يقدر عليه من الاجتهاد لنفسه ، كل مسـام بالغ عاقل من ذكر وأنثى حر وعبد تلزمه الطهارة والصلاة والصـيام فرضاً ، فيجب على كل مسلم تعرف علم ذلك .

وهكـذا يجب على كل مسـلم أن يعـرف ما يحل له وما يحـرم عليه من المآكل والمشارب والملابس والفروج والدماء والأمـوال فجميع هذا لا يسع أحداً جهله)) الفقيه المتفقه (1/46).

وأرى للداعية أن يكــون عنــده الحد الأدنى من العلــوم الشــرعية الأساسية وأقترح له ما يلي :

علم العقيدة الإسلامية :- أن يتعلم أصول العقيـدة من كتـاب معتمد مختصر على مذهب أهل السنة والجماعة ككتاب ((لمعة الاعتقـاد)) لابن قدامة ، أو ((العقيدة الواسطية)) لابن تيمية ونحوها .

علم التفسير :- أن يطلع على تفسير موجز موثـوق يشـتمل على معاني الكلمات وأسباب الـنزول والمعـنى الإجمـالي ، ويفيد في ذلك بعض المصــاحف المطبــوع على هامشــها أســباب الــنزول ومعــاني الكلمــات ، ثم يجعل له زاداً في دراسة

متأنية لتفســير بعض الســور والأجــزاء المكية والمدنية من كتاب معتمد متوسط مثل ((تفسير ابن كثير)) .

علم الحـــديث :- أن يـــدرس كتابـــاً من كتب الحـــديث الجامعة المختصـــرة مثل ((مختصر صــحيح البخــاري)) أو ((مختصر صحيح مسـلم)) ، ويمكن أن يطـالع كتابـاً من كتب الحـديث العامة المصـــــونة في جملتها من الأحــــاديث الضــــعيفة والمشتملة على أهم الأبـواب الـتي يحتـاج إليها في الإيمـان والفضائل والآداب مثل كتاب ((رياض الصـالحين)) ، ويحسن أن يطلع على بعض كتب الحـــديث المختصة بموضــــوعات معينة ففي أحـاديث الأحكـام ((بلـوغ المـرام)) وفي الأذكـار ((أذكار النووي)) وفي الشـمائل ((شـمائل الترمـذي)) ونحو ذلك .

علم الفقه :- أن يدرس مختصراً في فقه العبادات والمعـاملات وقد يضيف ما يحتاجه من الأبواب على مذهب من المـذاهب الأربعة المشتهرة .

علم السيرة والتاريخ :- أن يـدرس مختصـراً في سـيرة الرسـول صلى الله عليه وسلم مثل ((تهذيب سيرة ابن هشام)) ومن الكتب المعاصرة النافعة ((الرحيق المختـوم)) للمبـاركفوري ، وأن يطالع على الأقل تاريخ الخلفاء الراشدين .

مفــاتيح العلــوم :- أن يــدرس مختصــراً في أصــول الفقه مثل ((مختصر الأصـول)) للشــيخ ابن عـثيمين أو ((أصـول الفقه للمبتـدئين)) للأشـقر ، وكـذلك يـدرس مختصـراً في علـوم الحــديث مثل ((تيســير مصــطلح الحــديث)) للطحــان أو ((مختصر علوم الحديث)) لابن عثيمين ، وفي علوم القــرآن ((مبـاحث علـوم القـرآن)) للقطـان ، وفي أصـول التفسـير ((مقدمة شيخ الإسلام ابن تيمية))وذلك بحسب الطاقة.

علـوم اللغة :- أن يـدرس مختصـراً في النحو ((كالآجروميـة)) أو((ملحمة الإعـراب)) ، وكـذا في البلاغة والأدب يحتـاج إلى دارسة مــوجزة في مثل كتــاب ((البلاغة الواضــحة)) لعلي الجرام (يمكن النظر في برامج ومنـاهج لعلم وثقافة الداعية في كتـاب ((ثقافة الداعيـة)) للـدكتور يوسف القرضـاوي، و ((جند الله ثقافة وأخلاقـاً)) لسـعيد حـوى ، و ((العلم فضـله وطلبه)) لأمين الحاج أحمد محمد وغيرها).

وهـذه العلــوم الأساسـية يحتــاج الداعية فيها إلى إرشــادات عامة أهمها :-

1-التــــــدرج في كل علم من الأدنى إلى الأعلى ، ومن الأيسر إلى الأصعب ، وليَعلم ((أن للعلوم أوائل تـؤدي إلى أواخرها ، ومـداخل تفضي إلى حقائقها ، فيبتــــدئ طــــالب العلم بأوائلها لينتهي إلى أواخرها ، وبمــــــداخلها ليفضي إلى حقائقها ، ولا يطلب الآخر قبل الأول ، ولا حقيقة قبل المدخل ، فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة ، لأن البنـاء على غـير أسـاس لا يبـني ، والثمر من غـير غـرس لا يجني)) أدب الدنيا والدين (ص:55) .

وهـــذا ابن خلــدون يوضح لك الطريق فيقــول : ((اعلم أن تلقين العلـوم للمتعلمين إنما يكـون مفيـداً إذا كـان على التـدرج شـيئاً فشــيئاً وقليلاً قليلاً)) مقدمة ابن خلــدون (ص:533) وأفــاض في بيان ذلك بما فيه الوفاء.

وقال ابن شهاب الزهـري المحـدث الإمـام : ((من رام العلم جملة ذهب عنه جملة ، ولكن الشي بعد الشــيء مع الأيــام والليــالي)) جامع بيان العلم وفضله (ص:138) .

2- الحـرص على التلقي عن الشـيوخ كل في فنه وألاَّ يعتمد على الاطلاع المجرد وحـده ، فهـذه العلـوم ليست كالصـحف والمجلات يُكتفي فيها بالقراءة والاطلاع ، وكما قيل : ((من كـان شـيخه كتابه فخطؤه اكثر من صوابه)) وصدق الشاعر حيث يقول :

يظن الغمرُ أن الكتب تَهـدي ... أخـا جهل لإدراك العلـوم
ومـا علم الجهول بأن فيهـا ... مدارك قد تـدق عن الفهيم
ومن أخذ العلوم بغير شيـخ ... يضل عن الصراط المستقيـم
وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفتـه من الفهـم السقيـم

وكتب السلف وتراجم العلماء مليئة بأسماء شيوخهم ، وسيرتهم مع من تلقوا عنهم ، وكتب أهل العلم طافحة بآداب الطالب مع شيخه مما يدل على بدهية ذلك عندهم .
وقال الشاطبي :((من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقيق به أخذه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام)) الموفقات (1/9) وقد أفاض رحمة الله في تقرير ذلك وأفاد فليرجع إليه في موضعه .

3- الصبر والملازمة ، وترك الانتقال من علم إلى علم قبل تمامه ، ومن شيخ إلى شيخ قبل الاستفادة منه ، ومن كتاب إلى كتاب قبل إحكامه ، قال الزرنوجي :((ينبغي أن يثبت ويصبر على أستاذ ، وعلى كتاب حتى لا يتركه أبتر، وعلى فن حتى لا يشغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول ،وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة فإن ذلك كله يفرق الأمور ويشغل القلب ويضيع الأوقات ويؤذي العلم)) تعليم المتعلم (ص:44).

<u>الثاني : الثقافة الإسلامية :</u>

إضافة لتحصيل العلوم الشرعية وآلاتها فإن الداعية يحتاج بشكل ملح إلى ثقافة الإسلامية العامة ، وكذلك الثقافة المعاصرة ، ولا شك ((أن حركة الداعية حركة واسعة ، وانتشاره كبير واتصالاته كثيرة وهو ولا شك يلتقي أنواعاً كثيرة من البشر كل له مزاجه وثقافته واطلاعه فلا بد للداعية أن يشبع هذه الثقافات ويلم بشيء منها حتى يشارك من يخاطبه كل حسب ثقافته كمدخل من مداخل الدعوة)) الدعوة قواعد وأصول (ص:71) .
ولا بد من الاعتراف بوجود الخلل في هذه الثقافة عند كثير من الدعاة ((فهناك عجز في المعرفة بالحاضر المعيش والواقع المعاصر ، فهناك جهل بالآخرين نقع فيه بين التهويل والتهوين مع أن الآخرين يعرفون عنَّا كل شيء وقد كشفونا حتى النخاع ، بل هناك جهل بأنفسنا فنحن على اليوم لا نعرف حقيقة مواطن القوة فينا ولا نقاط الضعيف لدينا ، وكثيراً ما نضخم الشيء الهيّن ، وما نهون الشيء العظيم ، سواء في إمكانياتنا أم في عيوبنا)) أولويات الحركة الإسلامية (ص:21) .

ولهذا فلا بد من العناية بهـذا الجـانب وإعطـاءه الأهمية اللازمة له ، وأسلط الضـوء هنا على الموضـوعات المهمة في هـذا الجـانب من خلال الآتي :

1- الثقافة العامة :

وأعـــني بها ما يتصل بـــإبراز محاسن الإســـلام ، ومعرفة مقاصد الشريعة ، وتفنيد ورد مزاعم خصـوم الإسـلام وشـبهاتهم ، وإظهـار الكمال في أنظمة الإسـلام الاجتماعية والاقتصـادية وغيرها ، وبيـان أنها ترعى جميع المصالح وتسد أبـواب الفسـاد ، وأنها صـالحة لكل زمان ومكان وأمثال هذه الموضوعات .

وهذه الثقافة يمكن تحصـيل جـزء جيد منها من خلال تحصـيل العلم الشـــرعي ســـيما إذا توسع الداعية في طلبه وتحصـــيله ، ومع ذلك فهناك كتب جمعت مثل هذه المقاصد وهي كثـيرة منها ((نحو ثقافة إسـلامية أصـيلة)) لعمر الأشـقر ، و ((الخصـائص العامة للإسـلام)) للدكتور يوسف القرضـاوي ، و ((المـداخل إلى الثقافة الإسـلامية)) لمحمد رشاد سالم ونحوها .

2- الثقافة المعاصرة :

وأعني بها عدداً من الجوانب منها :

1- المـــذاهب الفكرية المعاصـــرة :- كالشـــيوعية والرأســـمالية ، والقومية ، والبعثية ، والماسونية ونحوها والكتب فيها كثـيرة ومن أوسـعها كتـاب ((المـذاهب الفكرية المعاصـرة)) لمحمد قطب ، ومن أجمعها مع الاختصـــار ((الموســـوعة الميســـرة في الأديـــان والمـذاهب المعاصـرة)) من إصـدارات النـدوة العالمية للشـباب الإسلامي .

2- الواقع المعاصر :- من جهة الأعــداء بدراسة الغــزو الفكــري ، والدور العلمي للصهيونية والماســونية ومخططــاتهم وأســاليبهم ، والتنصــير ومؤسســاته وأدواره وهنــاك كتب نافعة في مثل هــذه الموضوعات مثـل((الغـارة على العـالم الإسـلامي)) تـأليف أ.ل . شاتليه ، وترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليـافي ، وكتـاب ((أفيقـــوا أيها المســـلمون))لعبد الـــودود شـــلبي ، وكتـــاب ((بروتوكـــولات حكمـــاء صـــهيون)) ترجمة خليفة التونسي ، و((أساليب الغزو الفكري)) للدكتور علي جريشة ومحمد شريف آل زيبق .

ومن جهة المسلمين بمعرفة أحوالهم ومتابعة أخبارهم وأوضاع أقلياتهم وهذا موفور في ((حاضر العالم الإسلامي))للدكتور علي جريشة ، وكتب الأقليات وأحوال بلاد المسلمين .

وإذا توفر للداعية رصيد علمي مناسب وزاد ثقافي جيد كان ذلك عوناً له في دعوته ورافداً من روافد نجاحه .

المبحث الثالث : رجاحة العقل وقوة الحجة :

للإيمان إشراقاته وآثاره ، وللعلم فاعليته ودوره ، ويبقى للذكاء والفطنة أهميتها التي لا تنكر ، وإيجابيتهما التي لا تخفي ، وتوفر الذهن الوقّاد والعقل السديد ميزة عظمى يتحلّى بها الداعية فلا سذاجة تضيع بها معاني الريادة، ولا طيش ولا خفة تطمس معالم الهيبة ، بل عقل فطن يرجع إذا اختلفت الآراء ، ويحلل ويدلل إذا فقد الإدراك وغاب التصور ، ويتقن ترتيب الأولويات ، واختيار الأوقات ، وانتهاز الفرص والمناسبات ، ويحسن التخلص من المشكلات ، ويقوى على الرد على الشبهات ، والتكيف مع الأزمات .

وهناك أصناف من المدعوين يحتاج الداعية معهم إلى إقامة الحجة العقلية لإثبات القضية ولعدم اكتفائهم بالأدلة الشرعية من هؤلاء :

1- الكافرون الذين لا يؤمنون بالكتاب والسنة .
2- المعتدُّون بعقولهم المقدمين لها على النص النقلي .
3- المخدوعون بالشبهات .
4- المعاندون الذين يتّبعون الباطل تبعاً لمصالحهم ويسعون إلى إضلال غيرهم .
5- الواقعون تحت تأثير الأوضاع والأعراف الخاطئة حتى ألفوها ورأوها صواباً .

وهناك أساليب كثيرة مستنبطة من الكتاب والسنة في إقامة الحجة العقلية واستخدام الأقيسة المنطقية واستحضار التفكر والتأمل .

وهذه جوانب من هذه الأساليب مع بعض الأمثلة عليها :-

(أ)أسلوب المقارنة :-

وذلك بعرض أمرين أحدهما هو الخير المطلوب الترغيب فيه ، والآخر هو الشر المطلوب الترهيب منه ، وذلك باستشارة العقل

للتفكر في كلا الأمـــرين وعاقبتهما للوصـــول – بعد المقارنة – إلى تفضيل الخير واتباعه ومن أمثلة ذلك :-

قال تعالى : أومن كان ميتـاً فأحيينـاه وجعلنا له نـوراً يمشي به في النـاس كمن مثله في الظلمـات ليس بخـارج منها كـذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون الأنعام [122].

قال ابن كثير في تفسيره : ((هذا مثل ضربه الله تعالى للمـؤمن الذي كان ميتـاً أي في الضـلالة هالكـاً حـائراً ، فأحيـاه الله أي أحيا قلبه بالإيمـان وهـداه له ووفقه لاتبـاع رسـله))تفسـير ابن كثـير (2/172) .

وقـال تعـالى :أفمن أسس بنيانه على تقـوى من الله ورضـوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هـار فانهـار به في نـار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين التوبة [109] .

وقـال القرطـبي : ((وهـذه الآية ضـرب مثل لهم ، أي من أسس بنيانه على الإسلام خير أم أسس بنيانه على الشرك والنفاق ، وبين أن بناء الكافر كبناء على جـرف جهنم يتهـور بأهله فيها ، وفي هـذه الآية دليل على أن كل شـيء ابتـدئ بنية تقـوى الله تعـالى والقصد لوجهه الكـريم فهو الـذي يبقي ويسـعد به صـاحبه ويصـعد إلى الله ويرفع إليه)) تفسير القرطبي (8/265) .

ومن الأمثلة النبوية الـــتي تـــبين خـــيرات الصـــلاح والصـــالحين مع مقارنتها بويلات المعصية والعاصين ما يأتي :-

1-عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قـال رسـول الله صـــلى الله عليه وســـلم ((إنما مثل الجليس الصـــالح والجليس الســـوء كحامل المسك ونـــافخ الكـــير ، فحامل المسك إما أن يُحذيك وإما أن تبتـاع منه ، وإما أن تجد منه ريحـاً طيبة ، ونـافخ الكير إما أن يحـرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحـاً خبيثـة)) أخرجه مسـلم ، في كتـاب الـبر والصـلة ، بـاب : اسـتحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء (النووي)(6/ 178) .

قـــال النـــووي : ((وفيه فضـــيلة مجالسة الصـــالحين وأهل الخـــير والمـــروءة ومكـــارم الأخلاق والعلم والأدب والنهي عن مجالسة أهل الشر والبدع ومن يغتاب الناس ويكـثر فجـره وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة)) .

2-عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال النبي صـــلى الله عليه وسلم : ((مثل الذي يذكر ربه والـذي لا يـذكر ربه مثل

الحي والميت)) أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ،باب :استحباب صلاة النافلة في بيته (النووي)(6/68) .

ولا يخفى ما في المقارنة بين الحي والميت من إقــــــــرار العقل وترجيحه ورغبته لما فيه الحيــاة ، وهو الــذكر الــذي به الحيــاة القلب .

(ب) أسلوب التقرير :-

وهو أســـلوب يـــؤول بـــالمرء بعد المحاكمة العقلية إلى الإقـــرار بالمطلوب الذي هو مضمون الدعوة :-

من الأمثلة القرآنية على ذلك :-

1- قال تعالى ﴿أم خلقـوا من غـير شـيءٍ أم هم الخـالقون ، أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ، أم عنـدهم خـزائن ربك أم هم المسـيطرون ، أم لهم سـلّم يسـتمعون فيه فليـأت مسـتمعهم بسلطان مبين ، أم له البنـات ولكم البنـون ، أم تسـألهم أجـراً فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، أم يريدون كيـداً فالــذين كفــروا هم المكيــدون ، أم لهم إله غــير الله ســبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ الطور[35-43] . قال ابن كثير في تفسيره : ((هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية ، فقـال تعـالى ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ أي أوجـدوا من غـير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم ؟ أي لا هذا ولا هـذا بل الله هو الـذي خلقهم ، وأنشـأهم بعد أن لم يكونـوا شـيئاً مـذكوراً)) تفسـير ابن كثـير (4/244) .

وهـذه الآية في غاية القـوة من حيث الحجة العقلية لأن ((وجـودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطلق الفطرة ابتداءً ولا يحتـاج إلى جدل كثير أو قليل ، أمّا أن يكونوا هم الخـالقين لأنفسـهم فـأمر لم يـدَّعوه ، ولا يدَّعيه مخلـوق ، وإذا كـان هـذان الفرضـان لا يقومـان بحكم منطق الفطـــرة فإنه لا يبقى ســـوى الحقيقة الـــتي يقولها القـــرآن وهي أنهم من خلق الله جميعـــاً)) في ظلال القـــرآن (6/3399)، والتعبــير بــالفطرة مقصــوده الأمر المقــرر بداهة في العقل .

وتأمل هذا الإلزام بالإقرار بربوبية الله وألوهيته فيما ذكره السـعدي في تفسيره حيث قال : ((وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق أو الخروج عن موجب العقل والدين ، وبيــان ذلك أنهم منكرون لتوحيد الله مكذبون لرسـوله ذلك مُسـتَلزم لإنكـارهم أن الله خلقهم وقد تقـرر في العقل مع الشـرع أنّ ذلك لا يخلو من

ثلاثة أمور :- إما أنهم خُلقوا من غير شيء أي لا خالق خَلَقَهم ، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد وهذا عين المحال ، أم هم الخالقون لأنفسهم هذا أيضاً محال ، فإنه لا يتصور أن يوجد أحد نفسه ، فإذا بطل هذان الأمران وبان استحالتهما تعين القسم الثالث ، وهو أن الله هو الذي خلقهم ، وإذا تعين ذلك ، عُلمَ أن الله هو المعبود وحده الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى)) تفسير السعدي (7/195-196) .

2- قال تعالى ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدولي إلا رب العالمين ، الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين﴾ الشعراء [69-81] .

وهنا ستكون الإجابات بالنفي فعقولهم تمنعهم أن يقولوا إنّ أصنامهم تسمع دعاءهم أو تجيب رجاءهم ، وهذا يؤدي إلى عدم جدوى هذه الأصنام وبالتالي الاستسلام العقلي بوجود وألوهية الخالق الذي جاء في هذه الآيات وصف أفعاله سبحانه وتعالى .

ومن الأمثلة الحديثية :-

1-عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً أتي النبي صلى الله عليه وسلم فقال مستنكراً ومسترشداً : يا رسول الله ولد غلامٌ أسود ، فقال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم ، قال ما ألوانها ؟ قال : حُمر ، قال : هل فيها من أورق ؟ أورق :أي : أسمر- النهاية في غريب الحديث (5/175) قال : نعم ، قال :فأنى ذلك ؟ قال : لعله نزعه عرق ، قال : فلعل ابنك هذا نزعة عرق .أخرجه البخاري ، كتاب الطلاق ، باب إذا عرّض بنفي الولد (الفتح9/442).

فهذا الرجل جاء سائلاً مستفتياً عما وقع له من الريبة ، فلما ضرب له المثل أذعن ، وقال ابن العربي : ((فيه دليل على صحة القياس والاعتبار بالنظر)) فتح الباري (9/444).

2-عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : ((إن فتى من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أتأذن لي بالزنا ، فأقبل القوم عليه فزجروه ، وقالوا : مه مه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أدنه ، فدنا منه قريباً ، قال :

فجلس ، قال : أتحبه لأمك ؟ قال : لا والله جعلـني الله فـداك ، قال : ولا الناس يحبونه لأمهـاتهم ، قـال أتحبه لابنتك ؟ قـال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم ، قـال : أتحبه لعمتك ؟ قـال : لا والله جعلـني فـداك ، قـال : ولا النـاس يحبونه لعماتهم قال : أتحبه لخالتك ؟ قال : لا والله جعلــني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لخالتهم ، قال فوضع يــده عليه ، وقال : اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه ،وحصن فرجه ، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء)) المسند (5/257) .

فهذا الشاب قرَّره النـبي صـلى الله عليه وسـلم في رفض هـذا الفعل في صـور شـتى ثم توصل في آخر الأمر إلى رفض ونفي ما كان يطلب الإذن فيه من الزنا .

ومثل ذلك ما فعلته أم سليم زوجة أبي طلحة كما روى أنس بن مالك : ((اشتكى ابن لأبي طلحة ، قال فمات وأبو طلحة خارج . فلما رأت امرأته أنه قد مــات هيــأت شــيئاً ونحّته في جــانب الــبيت .فلما جــاء أبو طلحة قــال : كيف الغلام ؟ قــالت : قد هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد اسـتراح . وظنّ أبو طلحة أنها صادقة . قال : فبـات . فلما أصـبح اغتسل ، فلما أراد أن يخـرج أعلمته أنه قد مات ، فصلّى مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما كـان منهما ، فقـال رسـول الله صــــلى الله عليه وســـــلم : لعل الله أن يبــــارك لكما في ليلتكمـا)) صـحيح البخـاري ، كتـاب الجنـائز ، بـاب من لم يظهر حزنه عند المصيبة ، (الفتح) (3/169).

(ج) أسلوب الإمرار والإبطال :-

وهو أسلوب قوي في إفحـام المعانـدين أصـحاب الغـرور والصـلف بإمرار أقـوالهم وعـدم الاعـتراض على بعض حججهم الباطلة منعـاً للجدل والنزاع خلوصـاً إلى حجة قاطعة تـدمغهم وتبطل بها حجتهم تلك فتبطل الأولى بالتبع.

ومن الأمثلة القرآنية :

1- قصة إبراهيم مع النمرود قال تعالى ﴿ألم تر إلى الذين حــاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قـال إبـراهيم ربي الـذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت قـال إبـراهيم فـإن الله يـأتي بالشـمس من المشرق فـأت بها من المغـرب فبهت الـذي كفر والله لا يهـدي القوم الظالمين﴾ البقرة [258] .

نقل ابن كثير في تفسيره عن بعض السلف أن قول النمرود أنه يحي ويميت استَدل له بأن أتى برجلين استحقا القتل ، فأمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر ، ثم قال : ((والظاهر – والله أعلم – أنه ما أراد هذا لأنه ليس يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ، ويوهم أنه فاعل لذلك وأنه هو الذي يحي ويميت)) ثم قال : ((إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذراته وتسخير كواكبه وحركاته فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما تدعي ، فأت بها من المغرب ، فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت : أي خرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة)) وبين أن المقام الأول كالمقدمة للمقام الثاني ، وهذا الأسلوب يثبت بطلان ما ادعاه النمرود في ادعائه الأول .تفسير ابن كثير (1/313).

وقد أحسن صاحب الظلال في توضيح هذا الأسلوب حيث قال ((عرَّف إبراهيم ربه بالصفة التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحد ، ولا يمكن أن يزعمها أحد ... و هذا الملك يسأله عمن يدين له الربوبية ، ويراه مصدر الحكم والتشريع وغيره ،قال ﴿ربي الذي يحي ويميت ﴾ فهو من ثم الذي يحكم ويشرع))، ثم قال تعليقاً على قوله تعالى ﴿أنا أحي وأميت﴾: لم يرد إبراهيم عليه السلام أن يسترسل معه في جدل حول معنى الإحياء والإماتة مع رجل يماري ويداور في تلك الحقيقة الهائلة ، حقيقة منح الحياة وسلبها ، هذا السر الذي لم تدرك منه البشرية حتى اليوم شيئاً ، وعندئذ عدل عن هذه السنة الكونية الحقيقة إلى سنة أخرى ظاهرة مرئية ، وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية في قوله ﴿ربي الذي يحي ويميت﴾ إلى طريقة التحدي ، وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل في الله)) الظلال (1/298).

وعلق بمثل قوله السعدي في تفسير فقال : ((فلما رآه الخليل مموهاً تمويهاً ربما راج على الهمج والرعاع قال إبراهيم ملزماً بتصديق قوله : إن كان كما يزعم ﴿فإن الله يأتي بالشمس ..﴾ الآية فأتى (أي إبراهيم) بهذا الذي لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه)) تفسير السعدي (1/320).

2- قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وهي نموذج مطول في هذا الأسلوب حيث أعرض موسى عن كل اعتراض وشبهة أوردها فرعون ومضى إلى إبطال دعوى الألوهية لفرعون من خلال

إقامة الحجة العقلية الظـــاهرة على ربوبية وألوهية الله ، وذلك في الآيـات من سـورة الشـعراء ، قـال تعـالى :﴿قـال فرعـون وما رب العالمين ، قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، قال لمن حوله ألا تستمعون ، قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قــال إن رســولكم الــذي أرسل إليكم لمجنــون ، قــال رب المشــرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ، قال لئن اتخـذت إلهـاً غـيري لأجعلنك من المسجونين﴾ الشعراء [23-29] .
فهنا أعــرض موسى عليه الســلام عن تهكم فرعــون ومضى إلى غايته مقيمــاً حجته مقــرراً قضــيته ، ثم غض الطــرف عن تهمة الجنون الباطلة ولم يستغرق جهـده في إبطالها بل مضى في تقوية أدلته ونصـرة قضـيته ، حـتى أخذ فرعـون وحوصر وفشـلت حيلته ، وانقطعت تهكماته واتهاماته ، وأفحم بـالحجج فلجأ إلى القـوة وهي حيلة العاجز في ميـدان المنـاظرة والاحتجـاج ، وهـذا دليل على أنه هـزم وهـذا الأسـلوب دليل على كمـال عقل موسى عليه السـلام وحسن تقريره .
ولا شك أن الداعية مطــالب بتفهم هــذه الأســاليب والإفــادة منها ليكتسب فطنة تساعده على تقرير المسائل وإقامة الحجة وسرعة البديهة .
وهــذه أمثلة لأئمة ودعــاة كـانت لهم أقــوال ومواقف تــبين رجاحة عقولهم وقوة حجتهم .
<u>المثال الأول :</u>
يذكر عن أبي حنيفة أنه حاج قوماً من الملاحدة الدهريين فقال لهم : ما تقولــون في رجل يقــول لكم إني رأيت ســفينة مشــحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال قد احتوشها في البحر أمـواج متلاطمة ورياح مختلفة ، وهي من بينها تجري مســتوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يــدفعها ، هل يجــوز ذلك في العقل ؟ قــالوا : لا ، هــذه شيء لا يقبله العقل .
فقال أبو حنيفة : يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجري فكيف يجوز قيـام هـذه الـدنيا على اختلاف أحوالها وتغـير أعمالها ، وسـعة أطرافها وتبـاين أكنافها ، من غير صـانع وحافظ ؟ فهبت القـوم وأفحمـوا (أنظر درء تعارض العقل والنقل (3/127) .
<u>المثال الثاني :</u>

طلب الحجاج الحسنَ البصري ، فلما دخل عليه قـال له الحسن : يا حجاج كم بينك وبين آدم من أب ؟ قال : كثير ، قال فأين هم ؟ قال : مـــاتوا ، فنكس الحجـــاج رأسه وخـــرج الحسن (البداية النهاية (9/135).
وهـــذا المثل على وجازته فيه اســـتخدام العقل بـــالتفكير والتأمل والوصول إلى النتيجة التي فيها العظة والعبرة .

المثال الثالث :

سأل بعض النصارى القاضي أبا بكر الباقلاني بحضـرة ملكهم فقـال : ما فعلت زوجة نبيكم ؟ وما كـان من أمرها بما رميت من الإفك ؟ فقـال البـاقلاني على البديهة : هما امرأتـان ذكرتا بسـوء ، مـريم و عائشة فبرأهما الله عز وجل وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد ، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج ! البداية والنهاية (9/135) .
فكان هذا الجواب في غاية الروعة والإفحام ، لأن ذلك الخـبيث أراد التعـــريض والإحـــراج بقصة حادثة الإفك الـــتي اتهمت فيها عائشة رضي الله عنها ، فأجـاب البـاقلاني بـأن هـذه فرية برأها الله منها ولكنه قـرن ذلك بـذكر مـريم ، ليشـير إلى أن بـراءة عائشة عقلاً أولى ، لأنه لو تطـرق إلى العقل احتمـال الريبة فهو في حق مـريم أعظم ، فـإن قبلتهم أيها النصـارى براءتها فيلـزمكم قبـول بـراءة عائشة من باب الأولى .

المثال الرابع :

ما ذكـره مفـتي الـديار السـعودية سـابقاً العلامة الشـيخ محمد بن إبراهيم في مجموع فتاواه (مجموع فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم آل شيخ (1/75) عن الشيخ عبد الرحمن البكـري حيث قـال ((كنت بجوار مسجد في الهند ، وكان فيه مدرس إذا فرغ من تدريسه لعن الشــيخ محمد بن عبد الوهـاب ، وإذا خـرج من المسـجد مـرَّ بي ، وقال : أنا أجيد العربية ولكن أحب أن أسـمعها من أهلها ، ويشـرب عندي ماء بـارداً ، فـأهمني ما يفعل في درسه قـال : فـاحتلت بـأن دعوته ، وأخـذت ((كتـاب التوحيد الـذي هو حق الله على العبيـد)) للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ونزعت غلافه ووضعته على رف في مـــنزلي قبل مجيئه ، فلما حضر قلت : أتـــأذن لي أن آتي ببطيخة . فذهبت فلما رجعت .. إذا هو يقرأ ويهز رأسه عجباً فقال : لمن هذا الكتاب ؟ هذه التراجم شبه تراجم البخاري هذا والله نفس البخاري !! فقلت لا أدري ! ثم قلت : ألا نـــذهب لشـــيخ الغـــزوي لنســـأله – وكان صاحب مكتبة – فدخلنا عليه فقلت للشيخ الغزوي كان عنـدي

أوراق ســألني الشــيخ من هي له ؟ فلم أعــرف ! ففهم الغــزوي المراد ، فنادى من يأتي بكتاب (مجموعة التوحيـد) فـأتي بها فقابل بينهما فقـال : هـذا لمحمد بن عبد الوهـاب ، فقـال العـالم الهنـدي مغضباً وبصوت عال : الكافر ! فسكتنا وسكت قليلاً ، ثم هدأ غضبه فاسترجع ثم قال : إن كان هذا الكتاب له فقد ظلمناه ، ثم صار كل يوم يدعو له ويدعو معه تلاميذه)) . فهذه فطنة داعية وذكاء عالم .

المبحث الرابع : رجاحة الصدر وسماحة النفس :-

إن الداعية الحق شخصية متميزة فهو كالمنارة الهادية من بُعد لمن ضل أو حار ، وهو كالظل الوارف لمن لفحه حر الشمس والمســير في الهجير ، وبالتالي فهو نقطة تجمُّع بالنسبة للمدعوين ، ولذا فإنه يحتــاج إلى أن يتحلى برحابة الصــدر وســماحة النفس ليســتوعب الناس ويستميلهم للخير والحق ((فالناس في حاجة إلى كنف رحيم ، وإلى رعاية فائقة ، وإلى بشاشة سمحة ، وإلى ود يسعهم ، وحلم لا يضــيق بجهلهم وضــعفهم ونقصــهم ، في حاجة إلى قلب كبــير يعطيهم ولا يحتــاج منهم إلى عطــاء ، ويحمل همــومهم ولا يعــنيهم بهمه ، ويجدون عنده دائمــاً الاهتمـام والرعاية والعطف والسـماحة والود والرضاء)) الظلال (1/500-501) .

وهكذا كان قلب الرسول الله صـلى الله عليه وسـلم وهكـذا كـانت حياته مع الناس ، ((ما غضب لنفسه قط ولا ضاق صـدره بضـعفهم البشــري ، ولا احتجز لنفسه شــيئاً من أعــراض هــذه الحيــاة ، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية ، ووسعهم حمله وبــره وعطفه ووده الكــريم ، وما من واحد منهم عاشــره أو رآه إلاّ امتلأ قلبه بحبه ، نتيجة لما أفاض عليه صـلى الله عليه وسـلم من نفسه الكبـيرة والرحيبـة)) في ظلال القـرآن (1/500ـ- 501)ـ ، والنفس الســمحة ليس فيها ضــيق أو الســماحة الســهولة واللين . انظر القاموس المحيط (1/229) .

والناس مشاربهم شتى ، وسلوكياتهم متباينة ، واحتياجاتهم كثــيرة ، واستفزازاتهم مثيرة ، وهـذا لا بد أن يقابله الداعية بالاحتمـال ، لأن الاحتمال – كما قيل – قبر المعايب .

هــذه الخصيصة مهمة في تكــوين الداعية ، يحتــاج أن يجتهد في اكتســابها لأنها وقــود محــرك له في دعوته كما أنها ترفع كفــاءة القبـول ، وتكبح جمـاح الانفعـالات النفسـية ذات الآثـار السـلبية ،

وتتجلى هـذه الخصيصة في عـدد من الخلال توضـحها وتـبين أثرها ومن أهمها :

أولاً : الرحمة والشفقة :

((إن الـداعي لا بد أن يكـون ذا قلب ينبض بالرحمة والشـفقة على الناس ، وإرادة الخير لهم والنصح لهم ، ومن شفقته عليهم دعوتهم إلى الإسـلام ، لأن في هـذه الـدعوة نجـاتهم من النـار وفـوزهم برضوان الله تعالى ، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه وأعظم ما يحبه لنفسه الإيمان والهـدى فهو ذلك إليهم أيضـاً)) أصـول الـدعوة (ص: 344،343) .

وهذا الشعور الغامر بالشفقة على النـاس يبعث في النفس الحـزن والأسى على حـال المعرضـين والعاصـين ، ويتولد إثر ذلك قـوة نفسـية دافعة لاسـتنقاذهم من الخطر المحـدق بهم ، والهلاك القادمين إليه ، وما أبلغ وأدق النص القـرآني في بيـان هـذه الصـفه عند الرسـول الكـريم صـلى الله عليه وسـلم ﴿فلعلك بـاخع نفسك على آثـارهم إن لم يؤمنـوا بهـذا الحـديث أسـفا﴾ الكهـف[6] وقوله تعالى ﴿لعلك بـاخع نفسك ألا يكونـوا مؤمـنين﴾ الشـعراء [3] . تأمل هذه الآيـات فإنه ((من فـرط شـفقته صـلى الله عليه وسـلم داخله الحزن لامتناعهم عن الإيمان ، فهوّن الله سبحانه عليه الحـال ، بما يشـبه العتـاب في الظـاهر كأنه قـال له : لم كل هـذا ؟ ليس في امتنـاعهم- في عـدِّنا- أثـر، ولا في الـدين من ذلك ضـرر)) لطـائف الإشارات(1/377) .

وقال ابن القيم في تفسيره تفسير ابن كثير (3/72): يقول تعالى : ﴿فلعلك باخع ...﴾ مسـلياً لرسـول صـلى الله عليه وسـلم في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه)) .

فهـذه نفس الرسـول صـلى الله عليه وسـلم ملئت رحمة وشـفقة على هـؤلاء حـتى كـاد يُهلك نفسه وهو يـدعوهم ويحـرص على هدايتهم ، ثم يخالط مشاعره الحزن عليهم والأسى لهم .

إن الداعية ينظر إلى المـدعوين نظـرة الطـبيب إلى مرضـاه ، يـرحمهم ويشـفق عليهم لعلمه بـدائهم وخطورته ، ويتلطف في علاجهم ، وإن رأى منهم عزوفاً عن الدواء لصـعوبته أو مرارته هاله الأمر واحتال بكل الطرق لتوصيل الدواء ، وإقناعهم بضرورة تناوله ، ولا يمكن أن يتركهم وشأنهم بحجة أنهم المفرطون ، وهكـذا فـإن ((الداعي الرحيم لا يكفُّ عن دعوته ولا يسأم من الـرد والإعـراض لأنه يعلم خطورة عاقبة المعرضين العصاة ، وأن إعراضهم بسـبب

جهلهم ، فهو لا ينفك عن إقناعهم وإرشادهم)) أصول الـدعوة (ص: 344) .
فالرحمة – كما ترى – باعث دافع ومحرك للدعوة اسـتنقاذاً للنـاس من الهلاك ، وهي في الوقت نفسه عامل استمرار وإصرار وتوسيع لدائرة الاستيعاب والتأثير رغم الصد والإعراض .
ولا ينبغي أن تفهم الرحمة على أنها لين وتهـاون بل تـأتي الرحمة أحياناً كثيرة في ثنايا الحزم وفي أعطاف الشدة التي تهدف لصالح المدعو ، كما قد يشتد الطـبيب مع مريضه الـذي لا يـدرك خطـورة مرضه وعظمة الخطر في تـرك التـداوي أو التقصـير فيه ((فليست الرحمة حناناً لا عقل معه ، أو شفقة تتنكر للعدل والنظام ، كلا إنها عاطفة ترعى هذه الحقوق جميعاً)) خلق المسلم (ص:207) .
وإن في سـيرة المصـطفى الكـريم صـلى الله عليه وسـلم أعظم وأروع الأمثلة على الرحمة سيما في المواقف العصـيبة الـتي بلغت فيها المعانـاة أشد مراحلها الـتي تضـغط بعنف على النفس لتشـتد وتقسو ، وعلى الصدر ليضيق ويتبرم ، ومع ذلك تبقي نفسه الكبيرة ورحمته العظيمة هي الغالبة كما حصل يــوم رجوعه عليه الصــلاة والسلام من الطـائف بعد أن ذهب إليها وفي قلبه أمل ، فلقي فيها أعظم مما كان يتصور من الإعـراض فرجع كسـير القلب ، فلما بلغ قـرن المنـازل بعث الله جبريل ومعه ملك الجبـال ، يسـتأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة ، فقال النبي صلى الله عليه وسـلم ((بل أرجو أن يُخـرج الله عز وجل من أصـلابهم من يعبد الله عز وجل لا يشرك به شـيئاً)) أخرجه البخـاري ، في كتـاب بـدء الخلق ، باب إذا قال أحـدكم آمين والملائكة في السـماء (الفتح)(6/360) ، وفي صحيح مسلم كتاب الجهاد ، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسـلم من أذى المشـركين والمنـافقين (عبد البـاقي) (3/1420) وانظر الرحيق المختوم (ص:150).
وفي يـوم أحد عنـدما شـجّ وجهه الشـريف ، وكُسـرت رباعيته ، ودخلت حلقتا المغفر في وجنتيه (انظر الرحيق المختوم (ص:314) ، وبينما الدم يسيل على وجهه يقول عليه الصلاة والسلام : ((اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)) وفي صحيح مسلم قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء ، صـلوات الله وسـلامه عليهم ، ضـربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول :((رب اغفر لقومي فـإنهم لا يعلمون)) أخرجه مسلم ، كتاب الجهاد والسـير ، بـاب غـزوة أحد

(عبد البـاقي) (3/1417) ، ومن هنا جـاء الوصف الربـاني العظيم في ثنايا الآيات التي نزلت في غزوة أحد :﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضـوا من حولك ﴾ آل عمـران [159] .

((لقد أراد الله أن يمتنَّ على العـــالم برجل يمسح آلامه ، ويخفف أحزانه ، ويـــرثي لخطايـــاه ، ويســتميت في هدايته ، ويأخذ يناصر الضــعيف ، ويقاتل دونه قتــال الأم عن صــغارها ، ويخضد شــوكة القوي حتى يرده إنساناً سليم الفطـرة لا يضـري ولا يطغي فأرسل محمداً صلى الله عليه وسلم وسكب في قلبه من العــالم والحلم ، وفي خلقه من الإينـاس والـبر ، وفي طبعه من السـهولة والرفق ، وفي يـده من السـخاوة والنـدى ، ما جعله أزكى عبـاد الله رحمة ، وأوسعهم عاطفة ، وأرحبهم صدراً)) خلق المسلم (ص:204) .

نعم ((إن الرحمه كمـال في الطبيعة يجعل المـرء يـرق لآلام الخلق ويسعى لإزالتها ، ويأسى لأخطائهم فيتمنى لهم الهـدى ، هي كمـال في الطبيعة ، لأن تبلد الحس يهــوي بالإنســان إلى منزلة الحيــوان ويسلبه أفضل ما فيه ، وهو العاطفة الحية النابضة بالحب والرأفة)) خلق المسلم (ص:203) .

ثانياً : الحلم والأناة :

في مسيرة الدعوة تمر بالداعية أحداث مثيرة ، وأفعـال مسـتفزة ، والناس – باختلاف طبائعهم – تختلف مواقفهم إزاء المثـيرات الـتي تعمل على دفعهم نحو الرعونة والطيش ، فمنهم من ((تســـــتخفه التوافه فيستحمق على عجل ، ومنهم من تسـتفزه الشـدائد فيبقي على وقعها الأليم محتفظـاً برجاحة فكــره وســجاحة خلقــه))خلق المسلم (ص: 106) .

والحلم ((فضـيلة خلقية نافعة .. تقع في قمة عالية دونها منحـدرات ، فهو أناة حكيمة بين التسرع والإهمال أو التـواني ، وضـبط للنفس بين الغضب وبلادة الطبع ، ورزانة بين الطيش وجمـود الإحسـاس)) الأخلاق الإسلامية (2/325) .

والأناة عند الداعية إلى الله تعـالى ((تسـمح له بـأن يُحكم أمـوره ، ويضع الأشياء في مواضعها ، بخلاف العجلة فإنها تعرضه للكثـير من الأخطاء والإخفـاق ، وتعرضه للتعـثر والارتبـاك ، ثم تعرضه للتخلف من حيث يريد السـبق ، ومن اسـتعجل الشـيء قبل أوانه عــوقب بحرمانه ، وبخلاف التبـــاطؤ والكسل فهو أيضـــاً يعـــرض لللتخلف

والحرمـان من تحقيق النتـائج الـتي يرجوهـا)) الأخلاق الإسـلامية (2/353) ، وقد امتدح النبي صـلى الله عليه وسـلم الأشج فقـال : ((إن فيك خصـلتين يحبهما الله ورسـوله : الحلم والأنـاة)) أخرجه مسلم ، في كتاب الإيمان ، باب : الأمر بالإيمان بالله ورسوله (عبد الباقي)(1/48) ، فرحابة الصدر وسعة النفس تقتضي عدم الانفعال المخرج عن حد الصواب والاعتدال ، وجمهـور الـدعوة قد يقع منهم ما يــدفع إلى الغضب ، وكثــيراً ما يتصــرفون بــدافع من العجلة والرغبة في الحصول على النتـائج السـريعة ، ومجـاراة الداعية لهم في الحالتين خلل في مسلك الدعوة ، لأن المسـايرة قد تـؤدي إلى عواقب وخيمة ، وقد يكون أولئك العامة مندفعين إلى تلك العواقب بحمية عصـبية وحماسة اسـتفزازية ، ((لكن المصـلحين العظمـاء لا ينتهـون بمصـائر العامة إلى هـذا الختـام الأليم ، إنهم يفيضـون من أناتهم على ذوي النزق حـتى يلجئـوهم إلى الخـير إلجـاءً ، ويطلقـوا ألسنتهم تلهج بالثناء)) خلق المسلم (ص:107) .

ومن أمثله من سيرة النبي صـلى الله عليه وسـلم ما رواه أنس بن مالك حيث قـال : جـاء أعـرابي فبـال في طائفة المسـجد فزجـره الناس ، فنهاهم النبي صـلى الله عليه وسـلم ، فلما قضى بوله أمر النــبي صــلى الله عليه وســلم بــذنوب مــاء أهريق عليه (أخرجه البخاري ، كتاب الطهارة ، باب صب الماء على البـول في المسـجد (الفتح) (1/324) .

ومواقف أخـرى كثـيرة تـبين حمله الـذي لا ينـدفع فيه مع مقتضى الطبع ، ولا يمضي معه وفق أعــراف الجاهلية وانتصــاراتها المبنية على الحمية لأن ((الجاهلية التي عـالج رسـول الله صـلى الله عليه وســلم محوها كـانت تقــوم على ضــربين من الجهالة ، جهالة ضد العلم وأخــرى ضد الحلم ، فأما الأولى فتقطيع ظلامها يتم بــأنواع المعرفة وفنون الإرشاد ، وأما الأخـرى فكف ظلمها يعتمد على كبح الهوى ومنح الفساد ، وقد كان العرب الأولون يفخرون بأنهم يلقون الجهل بجهل أشد .

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فـــــوق جهل الجاهلينا (خلق المسلم (ص:109) .

ثالثاً : العفو والصفح :

ومن مستلزمات الحلم الـذي فيه كظم للغيظ وضـبط للغضب ، ثم الأنـاة الـتي فيها تبصر بـالأمور وتـأن في التصـرف ، مع الاسـتناد

للرحمة بالجـــاهلين كل ذلك يثمر العفو والصـــفح لأن ((القلـــوب الكبــيرة قلما تستجيشــها دوافع القســوة فهي أبــداً إلى الصــفح والحنان أدنى منها إلى الحفيظة والاضـطغان)) خلق المســلم (ص: 204).

ومــادام الــداعي المســلم ينظر إلى من يــدعوهم نظــرة الرحمة والشفقة عليهم فإنه يعفو ويصفح عنهم في حق نفسه ، قال تعالى :خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين الأعراف [199].

وإذا كـان هـذا هو شـأن الـداعي المسـلم بالنسـبة لمن يـدعوهم ويحتمل صدور الأذى منهم فـإن عفو الـداعي وصـفحه عن أصـحابه أوسع ، قال تعالى : فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر آل عمران [159] .

وعند ما وقعت حادثة الإفك ، كـان وقعها على آل أبي بكر شـديداً ، فلما نـــزلت الـــبراءة حلف أبو بكر رضي الله عنه ألا ينفق على مسـطح بن أثاثة فـأنزل الله في ذلك قوله تعـالى : ولا يأتل أولـوا الفضل منكم والســـعة أن يؤتـــوا أولي القـــربى والمســـاكين والمهاجرين في سـبيل الله وليعفـوا وليصـفحوا ألا تحبـون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم النور [22] .

والداعية الـذي يهـدف إلى اسـتمالة القلـوب وهـدايتها لا يقسو لأن ((القســوة الــتي اســتنكرها الإســلام جفــاف في النفس لا يرتبط بمنطق ولا عدالة . إنها نزوة فـاجرة تتشـبع من الإسـاءة والإيـذاء ، وتمتد مع الأثــرة المجــردة والهــوى الأعمى))خلق المســلم (ص: 207) ، ومن أعظم مواقف العفو عفو النبي صلى الله عليه وسلم عن المشركين يوم فتح مكة . الرحيق المختوم (ص:480، 481) .

وهكذا فإن رحابة الصدر وسماحة النفس تنتظم الرحمة التي تـدعو إلى الحلم الـــذي يقـــود إلى العفو فيكـــون من وراء ذلك التـــأثير التلقائي لأن الإنسان يتأثر بالإحســان :ادفع بــالتي هي احسن فـإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم فصلت [34] .

وهـذا أمر مشـاهد حيث نـرى أن من كـان سـمح النفس يسـتطيع ((أن يظفر بأكبر قسط من محبة الناس له ، وثقة النــاس به ، لأنه يعاملهم بالسـماحة والبشر ولين الجـانب ، والتغاضي عن السـيئات والنقائص ، فـإذا دعـاه الـواجب إلى تقـديم النصح كـان في نصـحه رقيقاً ليناً ، سمحاً هيناً ، يسر بالنصـحية ، ولا يريد الفضـيحة ، يسد الثغرات ولا ينشر الزلات والعثرات)) الأخلاق الإسلامية (2/443) .

وبعض الـدعاة ممن لا يتحلـون في أنفسـهم بهـذه السـمة تجـدهم ينـــدفعون مع أدنى خطأ أو أقل عـــثرة ، وإذا بهم يــدعون بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وكثيراً ما يواجهون الناس بالأحكام الدامغة الخطـيرة من الفسق أو الابتـداع أو التسـاهل ونحو ذلك ، وهـؤلاء كثيراً ما يستزلهم الشـيطان بهـذه الحمية الزائفة الـتي لا تـأتي في موضعها الصحيح ، والشـيطان ينفخ في حميتهم بـأن الحق أحق أن يتبع ، ويثــير التســاؤل أين الغــيرة الإيمانية والحمية الإســلامية ؟ ليغطي على الأنــاة الـتي تنظر في عـواقب الأمـور والحلم الــذي يضـبط النفـوس والرحمة الـتي تسـتميل القلـوب ، بعض هـؤلاء – وللأسف – ينـدفعون أحيانـاً خوفـاً من أن يُتهمـوا بعـدم الغـيرة أو التميع والتساهل ، ولا يفهم من قولي أن كل فاعل لـذلك مـذموم ، ولا أن كل موقف يقتضي الحلم واللين فقد أشـرت فيما سـبق إلى ما ينقص هـذا الفهم ولكـني أنـوه إلى صـور في الواقع ناشـئة من أفهام قاصرة وممارسات خاطئة .

الفصل الرابع : مقومات النجاح في ممارسة الدعوة:

في الفصل الماضي كان الحـديث عن المقومـات اللازم توفرها في شخصية الداعية وتكوينه الذاتي ، وهذا الفصل يركز على المقومات الـتي يحتاجها الداعية – وقد اسـتكمل المقومـات السـابقة – أثنـاء ممارسته للدعوة وفي المواقف التي يمر بها .

المبحث الأول : المراعاة والتدرج :

إن تغيير النفوس ونقلها من ميولها ومألوفاتها أمر ليس سهلاً ، وإن الأعـراف الـتي اسـتقرت في العقـول وتواطأ النـاس عليها لا تتغـير بأمر يصدر أو دعوة توجَّه ، والعادات في السـلوكيات الـتي تجـذرت وترسـخت لا يتصـور اقتلاعها في يـوم وليلة ولـذا فلا بد من إدراك حقيقة مهمة للـدعاة وهي أن المراعــاة والتــدرج لازمــان للتغيــير وحصـول الاسـتجابة ، وكما قيل : ((إذا أردت أن تطـالع فـأمر بما يستطاع)) ، وهناك أمـور كثـيرة يلـزم مراعاتها والأخذ بالتـدرج فيها وهذه خلاصة نافعة في هذا الباب :-

أولاً : مراعاة الطبائع

إن الناس يختلف بعضهم عن بعض ، في علمهم وفهمهم وطبـائعهم الشخصـــية وعوائـــدهم الاجتماعية ، وكل ذلك يحتـــاج الداعية إلى مراعاته ، وبالنسـبة لطبـائع الأشـخاص فـإن المـدعوين على ثلاثة أنواع :

1- فمنهم الراغب في الخير ولكنه غافل قليل البصيرة فيحتاج على دعوته بالحكمة .
2- ومنهم المعرض عن الحق المشتغل بغيره فمثل هذا يحتاج إلى الموعظة الحسنة بـالترغيب والـترهيب التنبيه على ما في التمسك بـالحق من المصـالح العاجلة والآجلة ، وعلى ما في خلافه من الشقاء والفساد .
3- الطبقة الثالثة من الناس من له شبهة قد حـالت بينه وبين فهم الحق والانقيـاد له فهـذا يحتـاج إلى مناقشة وجـدال بـالتي هي أحسن حـتى يفهم الحق وتـنزاح عنه الشـبهة (مجموع فتاوى ابن باز(2/241-243)

ومن الناس من طبعه الحدة وسرعة الانفعال ، ومنهم من يميل إلى السـكينة وطـول البـال وكل له مـدخل وأسـلوب يناسـبه ومراعاة ذلك مهمة في نجاح الداعية .

ثانياً : مراعاة الأفهام :

تفـاوت الأفهـام أمر معـروف، وله أسـبابه من قلة العلم أو اختلاف البيئة، أو استحكام العوائد ونحو ذلك .

قال ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ : أي ((ذكر حيث تنفع التـذكرة ، ومن هنا الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله)) تفسير ابن كثير (4/500) ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسـلم ((يا عائشة لو لا أن قومك حـديث عهـدهم – قـال ابن الزبـير : بكفـر- لنقضت الكعبة فجعلت لها بـابين ، بـاب يدخل الناس وباب يخرجـون)) أخرجه البخـاري ، في كتـاب العلم ، باب تـرك بعض الأخبـار مخافة أن يقصر فهم بعض النـاس (الفتح)(1/223) ، قال ابن حجر في الفتح : ((ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة ، ومنه ترك إنكار المنكر خشـية الوقـوع في أنكر منه ، وأنّ الإمام يسوس رعيته بما فيه إصلاحهم ولو كـان مفضولاً ما لم يكن محرّماً)) الفتح لابن حجر(1/225).

وروى الإمام البخاري في صحيحه ، في كتاب العلم ، بـاب من خصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألاَّ يفهمـوا ، عن علي بن أبي طـالب قال : حـدِّثوا النـاس بما يعرفـون ، ودعـوا ما ينكـرون ، أتحبـون أن يكذّب الله ورسوله ؟ صحيح البخـاري ، كتـاب العلم . وروى مسـلم ابن مسعود : ((ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كـان لبعضهم فتنة)) أخرجه مسلم في المقدمة ، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (1/11) .

قـال ابن حجر : ((ممن كـره التحـديث ببعض دون بعض أحمد في الأحـاديث الـتي في ظاهرها الخـروج على السُّـلطان ، ومالك في أحاديث الصفات ، وأبو يوسف في الغرائب .

وضابط ذلك أن يكون ظـاهر الحـديث يقـوي البدعة ، وظـاهره في الأصل غير مراد فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظـاهره مطلوب والله أعلم)) فتح الباري (1/225) .

ولذا ينبغي للداعية مراعاة ذلك وعدم مخالفته سيما بالنسبة للعوام ، ومن تقصر بهم الأفهـام ، وقد عـدَّ الشـاطبي في الاعتصـام هـذا التجاوز ضرباً من الابتداع فقال : ((ومن ذلك التحدث مع العوام بما لا تفهمه ولا تعقل معنـاه ، فإنه من بـاب وضع الحكمة في غـير

موضعها ، وسامعها إما أن يفهمها على غير وجهها- وهو الغالب- وهي فتنة تؤدي إلى التكذيب بالحق ، والعمل بالباطل ، وإما لا يفهم منها شيئاً وهو أسلم)) الاعتصام (2/13).
وأوضح ذلك أيضاً في موافقاته ومثل له بأمثلة من إنكار الصحابة لذلك فقال : ((ومن ذلك سؤال العوام عن علل مسائل الفقه وحكم التشريعات ، وإن كان لها علل صحيحة وحكم مستقيمة ، ولذلك أنكرت عائشة على من قالت : لم تقضي الحائض الصوم ، ولا تقضي الصلاة ؟ وقالت لها : أحرورية أنت ؟ ، وقد ضرب عمر بن الخطاب صبيغاً لما كان كثير السؤال عن أشياء من علوم القرآن لا يتعلق بها عمل وربما أوقع خيالاً وفتنة وإن كان صحيحاً)) الموفقات (4/191) .
وهذه كلمات للشاطبي أضعها أمام عين كل داعية وأهتف بها في سمعه ليعلم أنه ((ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره إن كان من علم الشريعة ومما يفيد علما بالأحكام ، بل ذلك ينقسم : فمنه ما هو مطلوب النشر ، وهو غالب علم الشريعة ، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق ، أولا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص)) الموفقات (4/189) .
وأزيد الأمر وضوحاً بذكر القاعدة الضابطة الرائعة التي ذكرها الشاطبي وأرشد إليها مخاطباً كل عالم وداعية حيث أوصاه أن يعرض مسألته على الشريعة فقال : ((فإن صحت في ميزانها فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمن وأهله ، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة ، فاعرضها في ذهنك على العقول فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها إما على العموم إن كانت مما تتقبلها العقول على العموم ، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم ، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ فالسكوت عنها هو الجاري على المصلحة الشرعية والعقلية))الموفقات (4/191) .

<u>ثالثاً : مراعاة المقاصد والنيات :</u>

قد يتفق اثنان في عمل ما ومع ذلك يختلف الحكم عليهما باختلاف النوايا ، فهناك من يفعل الفعل ناسياً ، أو جاهلاً بحرمته ، أو متأولاً فيه ، أو مكرها عليه ولكلٍ حكمه ومنهم من يفعل الإثم قاصداً عالماً بالحرمة لكنه مغلوبٌ بضعف عزمه ، ووسوسة شيطانه فلا يلبث أن يندم ويتوب ويستغفر ، ومنهم قاصد مصرّ ، وآخر محادٌّ الله ورسوله وهكذا ، ونحن نعلم أن النوايا مخفية في طوايا

القلوب ، ولكن بعض القرائن والأحوال تـدل عليها ، وقد تصـرح بها الألسنه فتعرف بوضوح .

وفي المسـائل الفقهية ما يوضح هـذا المعـنى سـيما في أحكـام الطلاق والأيمان والنذور إذ يسأل أصحابها عن مقاصـدهم وما نـووا بكلامهم ، ويعـــول في الحكم على نوايـــاهم ويوكل أصـــحابها في صدقهم إلى تـدينهم لله ، وما يعـرف عنهم من قـرآئن وأحـوال ولنا الظواهر . ومراعـاة مثل هـذا من الأمـور الـتي لا ينبغي إهمالها كما قال ابن القيم : ((إياك أن تهمل قصد المتكلم ونيته وعرفه فتجـني عليه وعلى الشـــريعة ، وتنسب إليها ما هي بريئة منـــه)). ومن أبز الأمثلة على اعتبـار النيـات حـديث التـائب الـذي قـال ((اللهم أنت عبدي وأنا ربك)) أخطأ من شدة الفرح (أخرجه مسـلم ، في كتـاب التوبة ، بـــاب في الحض على التوبة والفـــرح بها (عبد البـــاقي)(4/2103) فلم يؤاخذ بـذلك ، ومثله حـديث مسـلم في قصة الرجل الذي أوصى أن يحرق ويذرّ رماده في البر والبحر خشية من عـذاب الله ، فغفر الله له لهـذا المقصد الـذي اسـتولى على قلبه (أخرجه مسلم ، في كتاب التوبة ، باب سعة رحمة الله تعـالى وأنها سـبقت غضبه (عبد الباقي)(4/2109) .

رابعاً : مراعاة الأحوال الخاصة :

سـئل النـبي صـلى الله عليه وسـلم الوصـية والنصـيحة من بعض أصحابه فقال لأحـدهم : ((لا تغضـب)) أخرجه البخـاري ، في كتـاب الأدب ، بـاب الحـذر من الغضب (الفتح)(10/535) ، وقـال لآخر : ((قل آمنت بالله ثم استقم)) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب جـامع أوصـاف الإسـلام (عبد البـاقي)(1/65) ،وقـال للثـالث : ((لا يزال لسانك رطباً بذكر الله)) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ، بـاب ما جـاء في فضل الـذكر (شـاكر) (5/427) وما ذلك الاختلاف في الجواب إلا مراعاة منه صلى الله عليه وسـلم للأحـوال الخاصة بالسائلين إذ كان يعلم حاجة كل واحد منهم والجـانب القاصر عنـده ، والأمر اللائق به ، فأوصى كل واحد بما يناسبه .

وجاء شاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسـول الله ((أقبل وأنا صائم ؟ قال : لا ، فجاء شيخ فقـال : أقبّل وأنا صـائم ؟ فقـال : نعم ، فنظر الصـحابة بعضـهم إلى بعض (أي متعجـبين من اختلاف الفتـوى) فقـــال صـــلى الله عليه وســـلم : قد علمت نظر بعضـكم إلى بعض إن الشـيخ يملك نفسـه)) مسـند الإمـام أحمد (

2/185) ، وهذا واضح الدلالة في التفريق بين حـال الشـيخ وحـال الشاب ومراعاة ذلك في الفتوى والمعاملة والتوجيه .

خامساً : مراعاة الأعراف والعوائد العامة :

إن كل بلد لها أعرافها وكل بيئة لها عوائـــــدها ، ومراعـــــاة ذلك بالضوابط الشرعية ، من ضروب الحكمة وموافقة جوهر الشريعة ، وقد امتن الله على البشر بإرســـال الرسل وخص بالمنة كـــون الرسل من البشر وامتن على الأقـــوام بـــأن جعل الرسل منهم وينطقون بألسنتهم ، فقال تعالى :وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليــبين لهمإبــراهيم [4] فهــذا ((من لطفه تعــالى بخلقه أن يرسل إليهم رســلاً منهم بلغــاتهم ليفهمــوا عنهم ما يريــدون وما أرسلوا بـه)) تفسـير ابن كثـير(2/522) ، ولـذا ينبغي لداعية التنبه بذلك ، الحرص على معرفة الأعراف والعوائد في البيئة التي يــدعو إليها لتكــون دعوته مــؤثرة في النفــوس ، مقنعة للعقــول ، محببة للقلوب ، مناسبة للظروف ، قابلة للتطبيق فإذا جــاء في بيئة يغلب عليها الفقر ويشـــيع فيها الكسل فــإن المطالبة بالزهد في الـــدنيا والترفع عن شـهواتها غـير مناسب للبيئة وأحـوال النـاس ، وإذا دعا قوماً فاضت الأموال في أيديهم وشـغلت الـدنيا أوقـاتهم فالحـديث عن ضـرورة التمتع بالمبـاح من الـدنيا والحث على ذلك غـير ملائم كـذلك ، كما لا ينبغي أن يطـول الحـديث في الإنكـار على أمـور لا وجـود لها في بيئة الـدعوة إذ لا نفع في ذلك ، بل ربما تـرتب عليه ضرر من حصول تشويش واضطراب أو حصول تطلع وافتتـان بتلك الأمور .

قال ابن القيم في إعلام الموقعين منبهاً على هذا الموضـوع : ((ولا تَجمد على المنقـول في الكتب طـول عمـرك ، بل إذا جـاءك رجل من غير إقليمك يسـتفتيك فلا تجـره على عـرف بلـدك ، وسـله عن عـرف بلـده فـأجره عليه وأفته به دون عـرف بلـدك والمـذكور في كتبك)) إعلام الموقعين (3/78) ، ثم بين أثر ذلك وضرره فقال ك ((ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعوائـدهم وأزمنتهم وأحـوالهم وقـرائن أحـوالهم فقد ضل وأضل ، وكـانت جنايته على الـدين أعظم من جناية من طبَّب النـاس كلهم على اختلاف بلادهم وعوائـدهم وأزمنتهم وطبـائعهم بما في كتـاب من كتب الطب على أبدانهم بل هذا الطبيب وهـذا المفـتي الجاهل أضر ما على أديان الناس وأبدانهم)) إعلام الموقعين (3/78) .

وضرب ابن تيمية لذلك مثالاً علمياً فقـال : ((ولو أن المسـلم بـدار حــرب أو دار كفر غــير حــرب لم يكن مــأموراً بالمخالفة لهم (أي الكفــار) في الهــدي الظــاهر لما عليه في ذلك من الضــرر بل قد يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحياناً في هديهم الظاهر إذا كـان في ذلك مصـلحة دينية من دعـوتهم إلى الـدين ، والاطلاع على بـاطن أمـرهم أو دفع ضـررهم عن المسـلمين ونحو ذلك من المقاصد الصـالحة)) اقتضـاء الصـراط المسـتقيم لابن تيمية (ص: 173) .

سادساً : مراعاة الأولويات :

المــراد بمراعــاة الأولويــات معرفة مــراتب الأعمــال ووضـعها في مواضعها ، فإن المنهج الإسلامي قد جعل لكل عمل قدراً ، فإماطة الأذى وإن كانت من الإيمـان فإنها في الرتبة الـدنيا كما قـال صـلى الله عليه وسـلم : ((الإيمـان بضع وسـتون أو بضع وسـبعون شـعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق والحيـاء شـعبة من الإيمــان)) " ولا إله إلا الله " يقاتل لأجلها كما أخــبر الرســول الكــريم ((أمــرت أن أقاتل النــاس حــتى يقولــوا لا إله إلا الله)) وإماطة الأذى لا يمكن أن تكون سبباً لقتال بل هي دون ذلك بكثـير ويكفي فيها نصح ووعظ ، ولا يمكن المســاواة بينهما ، في الــدعوة إليهما والبذل في سبيل تحقيقهما .

وهـذا ظـاهر في بيـان تفـاوت عـدد من الأعمـال فيما تضـمنه قوله تعـالى ﴿أجعلتم سـقاية الحـاج وعمـارة المسـجد الحـرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين ، الـذين آمنـوا وهـاجروا وجاهـدوا في سـبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفــائزون﴾ التوبة [19_20] .

ولا بد للــداعي أن يعلم أن الأصــول لا بد أن تقــدم على الفــروع ، والفروض تقدم على النوافل ، وفروض الأعيان مقدمة على فروض الكفايات ،وفروض الكفايـات الـتي فيها عجز ظـاهر أولى من الـتي انتدب لها غيره من المسلمين.

وللشــيطان أرب في هــذا الجــانب لــدى الــدعاة فهو في معركة المراغمة يبدأ بـالكفر فـإن عجز فـإلى البدعة ، فـإن لم يفلح فـإلى كبـائر الـذنوب ، فـإن فشل فـإلى صـغائرها ، فـإن لم يتمكن فـإلى الاســتكثار من المبــاح فــإن ((تملص الداعية وســلَّ نفسه لم يكن اســتعلاؤه على الراحة والرغد كافيــاً لحصــار الشــيطان في زاوية

اليأس ، بل للشيطان محاولة سادسة فيكـون له التفـاف واقتحـام من ثغـرة أخـرى ، فينـثر تـرتيب قائمة الأولويـات النسـبية ، بعكس القواعد الشـــريعة في تفاضل الأعمـــال الإيمانية ويلهي المـــؤمن بالمفضـــول المرجـــوح ، فيقضي من له علم نـــافع عن جمهـــور المنتفعين منه ، يشغله بزيـادة ركـوع أو سـجود ، هما جليلان ، لكن التعليم أوجب عليه بعد الفـرض منهما ، وينقل آخر له وفـرة قـوة وبســطة في الجسم والــذكاء وخــبرة في السياسة والإدارة ، من تفاعله المنتج مع يوميات الخطة الجماعية ،ومن صولاته في سـاحة الفكر إلى إشـراف على بنـاء مدرسة أو إغاثة منكـوب)) المســار (ص:19).

من المعلوم أن هناك مقاصد ضرورية مقدمة ، ومقاصد حاجية تأتي بعدها ، وهناك أيضاً مقاصد تحسينية تأتي في المرتبة الأخـيرة ، ولا بد من مراعاة ذلك ومعرفة أن ((المقاصد الضـرورية أصل للحاجية والتحسينية)) الموفقات (2/17) ، ((وأن الضروري هو الأصل وأن ما سـواه مبـنى عليه كوصف من أوصـافه أو كفـرع من فروعه ، ويلـزم باختلاله اختلال البـاقين لأن الأصل إذا اختل الفـرع من باب أولى فلو فرضنا ارتفاع أصل البيع من الشريعة لم يكن اعتبـار الجهالة والغـرر ، وكـذلك لو ارتفع أصل القصـاص لم يمكن اعتبـار المماثلة فيه فـإن ذلك من أوصـاف القصـاص ومحـال أن يثبت الوصف مع انتفاء الموصف)) الموفقات (2/18) .

والعقيدة هي أساس والشريعة هي البناء ، ولا بناء من غـير أسـاس ولا عمل من غـير توحيد وإخلاص ﴿وقـدمنا إلى ما عملـوا من عمل فجعناه هباء منثـوراً﴾ الفرقـان [23] ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الـذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ الزمر [65] ، وسائر الرسل والأنبياء كانت الدعوة إلى التوحيد عندهم هي أولى الأولويـات وأهم المهمات وكلهم كان نداؤهم ﴿اعبدوا الله مالكم من إله غـيره﴾ هـود [50] ، ومن منطلق العقيدة الإيمـان سـعوا إلى علاج الانحرافـات الواقعة في مجتمعـاتهم كـلٌ بحسـبه ، فموسى عليه السـلام عـالج الطغيـان السياسي الفرعـوني وما تـرتب عليه من إذلال النـاس واسـتعبادهم على أسـاس الإيمـان ، ولـوط عليه السـلام عـالج الانحـراف الخلقي والشـذوذ الجنسي في قومه ، وهكـذا سـائر الرسل والأنبياء .

والمصطفى صلى الله عليه وسلم بدأ بالإيمان والتوحيد ثم شـرعت الشرائع وفرضت الفرائض ((والدعاة عليهم أن يسلكوا سـبيله وأن

يقتفوا أثـره بـادئين بـالأهم فـالمهم ولكن إذا كـان المجتمع مسـلماً ساغ للداعي أن يـدعو إلى الأهم وغـيره)) بل يجب ذلك عليه ((لأن المطلوب إصلاح المجتمع المسلم وبـذل الوسع في تطهـير عقيدته من شوائب الشـرك ووسـائله ، وتطهـير أخلاقه مما يضر بـالمجتمع ويضـعف إيمانه ولا مـانع من البـدء ببعض الأوقـات بغـير الأهم إذ لم يتيسر الكلام في الأهم ولا مانع أيضاً من اشـتغاله بـالأهم وإعراضه عن غـير الأهم إن رأى المصـلحة في ذلك أو خـاف إن هو اشـتغل بهما جميعـاً أن يخفق فيهما جميعـاً)) مجمـوع فتـاوى ابن بـاز (1/325) .

وهذا الأمر ينبغي أن يفهم فهماً صحيحاً ، وأن يطبق تطبيقاً سـليماً من غير إفـراط ولا تفريط ، فـالمراد بالبـدء بالعقيـدة التركـيز على أصـولها وأركانها وهو ما يجب على المكلف اعتقـاده ، إذ يجب عليه ((أن يـؤمن بالله ورسـوله ويقر بجميع ما جـاء به الرسـول من أمر الإيمـــان بالله وملائكته وكتبه ورســـله واليـــوم الآخر ، وما أمر به الرسـول ونهى ، بحيث يقر بجميع ما أخـبر به وما أمر به فلا بد من تصـديقه والانقيـاد له فيما أمر ، وأما التفصـيل فعلى كل مكلف أن يقر بما ثبت عنده من أن الرسـول أخـبر به وأمر به ، وأما ما أخـبر به الرسـول ولم يبلغه أنه أخـبر به ولم يمكنه العلم بـذلك فهو لا يعاقب على ترك الإقرار به مفصلاً وهو داخل في إقـراره بالمجمل العام ، ثم إن قال بخلاف ذلك متأولاً كان مخطئـاً يغفر له خطـؤه ، إذا لم يحصل منه تفريط ولا عدوان ، ولهـذا يجب على العلمـاء من الاعتقاد ما لا يجب على آحاد العامة ، ويجب على من نشأ بدار علم وإيمان من ذلك ما لا يجب على من نشأ بدار جهل)) مجموع فتاوى ابن تيمية (3/327-328)ـ ، بالتـالي فـإن الداعية إذا علّم النـاس أصول الإيمان على الإجمال أو وجدهم بها عالمين كان الأولى به أن يركز لهم على مقتضيات الإيمان وآثـاره وربط ذلك بواقع حيـاتهم ، وهذا أجدى وأنفع من المضي بهم إلى مزيد من المسـائل والفـروع التي لا يحتاجها إلا طلبة العلم بل ربما المتخصصين منهم.

سابعاً : مراعاة المصالح والمفاسد

وهـذا الأمر في غاية الأهمية وذلك لأن ((الشـريعة مبناها وأساسـها على الحكم ومصـالح العبـاد في المعـاش والمعـاد ،وهي عـدل كلها ورحمة كلها ومصـــالح كلها وحكمة كلها فكل مســألة خـــرجت عن العـدل إلى الجـور ، وعن الرحمة إلى ضـدها ، وعن المصـلحة إلى المفســـدة ، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشـــريعة وإن

دخلت فيها بالتأويل)) إعلام الموقعين (3/3)ـ ، وهـذا مبحث دقيق ينبغي في البداية التنبه إلى أن المراد بالمصالح والمفاسد ما كـانت كذلك في حكم الشرع لا ما كان ملائمـاً أو منـافراً للطبع ولا يكـون تقريرها وفق أهـــواء النفـــوس في جلب مصـــالحها العادية ودرء مفاســـدها العادية (الموفقـــات (2/37-40) ثم النظر في تقرير المصـالح والمفاسد وتقريرها والـترجيح بينها يحتـاج إلى تقـوى لله صـادقة ، بصـيرة علمية نافـذة ، ومعرفة بـالواقع واسـعة ، ليتمكن الداعية من تحقيق مقصود الشريعة التي ((جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وأنها تـرجح خـير الخـيرين وشر الشـرين وتحصل أعظم المصـلحتين بتفـويت أدناهما وتـدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما)) مجموع فتـاوى ابن تيمية (20/48)ـ ، والدقة في هـــذا المبحث تكمن في أن المعـــروف قد يـــترك فعله والحض عليه ، والمنكر قد يـــترك النهي عنه والإنكـــار عليه ، بل قد يُدعى إلى تـرك بعض أفعـال الخـير ، ويقصد إلى فعل بعض المنكر وكل ذلك باعتبـــار تحقيق المصـــلحة ودفع المفســـدة ، فعند تحقيق أعظم المصلحتين تفوت أدناهما وهي من المعروف المطلوب فعله ، وعند درء أكبر المفسدتين يُـرتكب أخفهما وهي المنكر المطلـوب تركه ، والخلاصة أن السـيئة تحتمل في موضـعين دفع ما هو أسـوأ منها إذا لم تـــــــدفع إلا بها ، وتحصل بما هو أنفع من تركها إذا لم تحصَّل إلا بها ، والحسنة تـترك في موضـعين ، إذا كـانت مفوَّتة لما هو أحسن منها ، أو مســـتلزمة لســـيئة تزيد مضـــرتها عن منفعة الحسنة)) مجموع فتاوى ابن تيمية (20/53) .

وفقه المسألة يزيل ما قد يعلق في العقول من عجب أوشك وبيانه أنه ((إذا ازدحم واجبـان لا يمكن جمعهما فقُـدِّم أو كـدهما ، لم يكن الآخر في هذه الحال واجباً ، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تـارك واجب في الحقيقة ، وكـــذلك إذا اجتمع محرمـــان لا يمكن تـــرك أعظمهما إلا بفعل أدناهما لم يكن فعل الأدنى في هـــذه الحـــال محرماً في الحقيقة)) مجموع فتاوى ابن تيمية (20/57) .

وهذه أمثلة عملية في هذا الباب أسوقها من كلام العلماء :ـ

<u>المثال الأول :</u> يقول ابن تيمية : ((فمن كـانت العبـادة تـوجب له ضـرراً يمنعه عن فعل واجب أنفع له منها كـانت محرمة ، مثل أن يصـوم صـوماً يضـعفه عن الكسب الـواجب أو تمنعه عن العقل أو الفهم الواجب أو يمنعه عن الجهاد الواجب ... وأما إن أضـعفته عما هو أصلح منها وأوقعته في مكروهـات فإنها مكروهة وقد أنـزل الله

في ذلك قوله تعالى ﴿يا أيها الـذين آمنـوا لا تحرمـوا طيبـات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ فإنها نزلت في أقـوام من الصحابة كانوا قد اجتمعـوا وعزمـوا على التبتل للعبـادة ، وهـذا يسرد الصوم وهذا يجتنب النساء فنهـاهم الله عن تحـريم الطيبـات من أكل اللحم والنساء)) مجموع فتاوى ابن تيمية (273-25/272) .

المثال الثاني : يقـول ابن بـاز : ((أما إذا كـان هجر الشـخص قد يترتب عليه ما هو من فعله لأنه ذو شأن في الدولة أو ذو شـأن في قبيلته ، فيــترك هجــره ويعامل بــالتي هي أحسن ويرفق حــتى لا يــترتب على هجــره ما هو شر من منكــره وما هو أقبح من عمله والــدليل على ذلك : أنه صــلى الله عليه وســلم لم يعامل رأس المنــافقين عبد الله بن أبي ســلول بمثل ما عامل به الثلاثة وهم : كعب وصاحباه ، بل تلطف به ولم يهجـره لأنه رئيس قومه ويخشى من سجنه وهجره فتنة للجماعة في المدينة ولهذا كان النـبي صـلى الله عليه وسلم يرفق به حتى مات على نفاقه نسأل الله العافية)) مجموع فتاوى ابن باز (4/235) .

المثال الثالث : قال العز بن عبد السلام : ((الكذب سيئة محرمة إلا أن يكــون لجلب مصــلحة أو دفع مفســدة كالكــذب في حالة الإصـلاح بين المتخاصـمين لأن مصـلحة تـأليف القلـوب أحسن من مفســدة الكــذب، وككــذب الرجل على زوجته لإصــلاحها وحسن عشرتها ، وكالكذب على الأعـداء كـأن يختـبئ عنـدك رجل مظلـوم والظالم يسألك عنه ، حفظ العضو أعظم من مصلحة الصدق الـذي لا يضر ولا ينفع فما الظن بالصــدق الضــار)) قواعد الأحكــام في مصلحة الأنام للعز بن عبد السلام (ص:84).

ثامناً مراعاة الأوقات :

والمقصود بمراعـاة الـوقت تخـير الـوقت الملائم للـدعوة من حيث فــراغ المــدعوين واســتعدادهم للتلقي ، وكــذا المراعــاة لأوقــات المواعظ والدروس ، ومناسبة طول وقتها لأحـول النـاس ، وينـدرج تحت ذلك مراعاة استعداد المدعو وبلوغه المرحلة التي يكـون فيها الوقت مناسباً لتفاعله واستجابته .

وشاهد الضرب الأول ما روي عن ابن مسعود : ((كان النـبي صـلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السـآمة علينـا)) أخرجه البخـاري ، في كتـاب العلم ، بـاب ما كـان النـبي صـلى الله عليه وســلم يتخــولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفــروا (الفتح) (

1/161) قال ابن حجر معلقاً :ويستفاد من الحديث اسـتحباب تـرك المداومة في الجد والعمل الصـــالح خشـــية الإملال ، وإن كـــانت المواظبة مطلوبة ولكنها على قسمين إما كل يوم مع عـدم التكلف ، وإما يومـاً بعد يـوم ، فيكـون يـوم الـترك لأجل الراحة ليقبل على الثاني بنشـاط ، وإما يومـاً في الجمعة ، ويتخلف بـاختلاف الأحـوال والأشخاص والضابط الحاجة مع مراعاة وجود النشاط (فتح البــاري (1/163) ، وعن ابن عباس مثال آخر أشمل وأظهر إذ روي عنه أنه قال : حدث الناس كل جمعة مرة ، فإن أبيت فمرتين ، فإن أكثرت فثلاث مرات ولا تمـلَّ النـاس هـذا القـرآن ، ولا ألفينك تـأتي القـوم وهم في حـديث من حـديثهم فتقطع عليهم حـديثهم فتملهم ، ولكن أنصت فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه (شرح السنة (1/314) .
وأما الضرب الثاني فيشهد له قول ابن مسعود : ((حـدث القـوم ما حدجوك بأبصارهم وأقبلت عليك قلوبهم فإذا انصرفت عنك قلـوبهم فلا تحــدثهم)) ، فسـئل عن علامة انصـراف القلـوب فقـال : ((إذا التفت بعضــهم إلى بعض ، ورأيتهم يتثــاءبون فلا تحــدثهم)) شـــرح السنة (1/313) ، ويضاف إليه ما روي عن عائشة أنها قالت لقاص أهل مكة عبيد بن عمـــير : ألم أحـــدَّث أنك تجلس ويُجلس إليك ؟ قال : بلى يا أم المؤمنين ، قالت : فإياك وإملال النــاس وتقـنيطهم (شرح السنة(1/314) وإملال الناس يكون بإطالة الحديث في كثير من الأحوال .
وأما الضـرب الثـالث فمثاله ما رواه البخـاري ((عن حكم بن حـزام رضي الله عنه قـال : سـألت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فأعطاني ، ثم سـألته فأعطـاني ، ثم سـألته فأعطـاني ثم قـال : يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخـذه بإشـراف نفس لم يبـارك له فيه كالـذي يأكل ولا يشبع ، اليد العليا
خـير من اليد السـفلى)) أخرجه البخـاري ، في كتـاب الزكـاة ،بـاب الاستعفاف عن المسـألة (الفتح)(3/393) ، قـال ابن حجر ((وفيه أنه ينبغي للإمام أن لا يبين للطالب ما في مسألته من المفسدة إلا بعد قضـــاء في حاجته لتقع موعظته له الموقـــع)) فتح البـــاري (3/ 395) .
وهكذا نرى أمر المراعـاة متشـعباً ومهمـاً ، والحقيقة أن المراعـاة ضـرب من التـدرج لأن المراعـاة كثـيراً ما تقتضي تـرك أمر لعـدم ملائمته إما للطبع أو الفهم أو الحـــال أو غـــير ذلك والاستعاضة عنه

بغـيره حـتى يكـون ممهـداً لعـرض الأمر المـتروك فيـأتي في وقته المناسب فمثلاً ((إذا كـــان الحكم مســـتغرباً جـــداً مما لم تألفه النفوس وإنما ألفت خلافه فينبغي للمفتي أن يـوطئ قلبه ما يكـون مؤذناً به كالـدليل عليه ، والمقدمة بين يديه ، فتأمل ذكـره سـبحانه قصة زكريا وإخـــراج الولد منه بعد انصـــرام عصر الشـــبيبة وبلوغه السن الـذي لا يولد فيه لمثله في العـادة فـذكر قصـته مقدمة بين يدي قصة عيسى عليه السلام وولادته من غـير أب ، فـإن النفـوس لما أنست لولد من بين شخصين كبيرين لا يولد لهما عـادة ، سـهل عليها التصديق بولادة ولد من غير أب)) إعلام الموقعين (4/163) .

وهـــذه أمثلة رويت عن عمر بن عبد العزيز في مراعاته لأحـــوال الأمة فيما سبقه من الزمن وحرصه على التدرج في الإصلاح .

1- حكي ((أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – قال يوماً لأبيه عمر : مالك لا تُنفذ الأمور ؟! فوالله ما أبــالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق !! قــال عمر : لا تَعجَل يا بـني ، فـإن الله ذمَّ الخمر في القـرآن مـرتين وحرمها في الثالثة ، وإني أخـــاف أن أحمل النـــاس على الحق جملة فيــدفعوه جملة ، ويكــون من ذا فتنــة)) الموفقــات (2/93-94) .

2- قـــال له ابنه ذات يــــوم ((يا أبت : ما يمنعك أن تمضي لما تريــده من العــدل ؟ فو الله ما كنت أبــالي لو غَلت بي وبك القدور في ذلك .
قـال : يا بـني ، إنِّي إنما أروِّض النـاس رياضة الصـعب ، إني أريد أن أحيي الأمر من العـدل فـأؤخر ذلك حـتى أخـرج معه طمعاً من طمع الدنيا فينفروا من هذا ، ويسكنوا لهذا))

3- روي أن ابنه دخل عليه فقال يا أمي المؤمنين : ما أنت قائل لربك غداً ، إذا سألك فقال : رأيت بدعة فلم تمتها ، أو سـنة فلم تُحيها ؟ فقال أبوه : رحمك الله وجـزاك من ولد خـيراً يا بـني ، إن قومك قد شـدوا هـذا الأمر عُقـدة عقـدة ، وعـروة وعروة ، ومتى أردت مكابرتهم على انتزاع ما في أيـديهم لم آمن أن يفتقوا علي فتقاً يكثر فيه الدماء ، والله لزوال الدنيا أهـون علي من أن يـراق في سـببي محجمة من دم ، أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيـام الـدنيا إلا هو يميت فيه بدعة ويحي فيه سـنة ؟ تـاريخ الخلفـاء للسـيوطي (ص:

240) وغـني عن التنبيه أن التـدرج يمكن أن يكـون تهاونـاً وتفريطاً وأن المراعاة لا يصح أن تكون مداهنة ونفاقاً .

المبحث الثاني : الجرأة والحكمة :

((الجرأة في الحق قوة نفسية رائعة يستمدها المـؤمن من الداعية من الإيمـان بالله الواحد الأحد الـذي يعتقـده ، ومن الحق الـذي يعتنقه ، ومن الخلود السـرمدي الـذي يـوقن به ، ومن القـدر الـذي يستسـلم إليه ، ومن المسـئولية الـتي يستشـعر بها ، ومن التربية الإسلامية التي نشّئ عليها .

وعلى قدر نصيب المؤمن من الإيمان بالله الـذي لا يُغلب ، وبـالحق الذي لا يُخذل ، وبالقدر الذي لا يتحـول وبالمسـئولية الـتي لا تكـلّ ، وبالتربية التكوينية الـتي لا تمل ، وبقـدر هـذا كله يكـون نصـيبه من الجرأة والشـجاعة وإعلان كلمة الحق الـتي لا تخشى في الله لومة لائم)) صفات الداعية النفسية (ص:23) .

والجرأة للداعية أمر مهم في زيادته وقيادته ، وفي تأثيره ومنفعته ، لأن الناس يتأثرون بالجريء المقدام ، لأنهم في الملمات يحجمـون وتتقـدم بالداعية جرأته في الحق مصـحوبة بحكمته في التصـرف فإذا هو المقدم الذي تشخص إليه الأبصار ، ويتعلق به القلوب .

فالجرأة سمه تقدم للداعية تنبئ عن قـوة في القلب ، وعزيمة في النفس ، وصـدق في المواقف ، وشـموخ بـالمنهج ، فعنـدما تنخلع القلـوب هلعـاً يبقى الداعية الجـريء سـاكن القلب رابط الجـأش ، وعنـدما تخـرس الألسن خوفـاً تَنطق الجـرأة على لسـانه فيجهر بـالحق لئلا تنطمس معالمه ، وعنـدما تحـار العقـول من هـول المفاجآت أو صدمة الكوارث تعمل الجرأة عملها فـإذا العقل حاضر ، والتفكير صادر ، ونحن في أعصر رق فيها الدين ، وكـثر التسـاهل في الأوامر والنـواهي ، وتـرخص كثـيرون في الرضى بـالمنكرات ، واسـتحيا آخـرون من إظهـار العمل بالصـالحات ، حـتى غـدا المنكر معروفاً والمعروف منكراً في كثير من الأحوال ، وتدور دورة الحياة بمشـاغلها ، وتبهر العقـول بمفاتنها ، وتخطف الأبصـار ببهارجها ، فتستقر الأوضاع الخاطئة وتسـتمر المنكـرات الظـاهرة وما ذلك إلا لقلة أهل الجرأة والشجاعة الذين يتقـدمون لرفع راية الحق فيلتف حـولهم آخـرون ويكونـون بـؤرة تجمع تـرفض الـذوبان ، وتستعصي على التهجين ، إن لهـذه الجـرأة والشـجاعة زاد من اليقين بـ((أن حق الله لا بد أن يسـود ، وأن هـداه لا بد أن يعلو ، وأن نهجه لا بد

أن تتضح معالمه وترسو دعائمه ، وأن المنتســبين إليه ما ينبغي أن تخفت أصـــواتهم ، ولا أن يغلبـــوا على تعـــاليمهم)) مع الله (ص: 210) .

والحق أن ((الأمة جمعاء مكلفة أن تكون شـجاعة في حماية الـدين ، ورد العــادين على حــدوده من المجَّان والفجــار)) مع الله (ص: 210) وهـذا هو وصف الصـفوة المختـارة لحمل الرسـالة في كل عصر يتلفت فيه الناس من المسئولية ، ويتخلون عن التبعية ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسـوف يـأتي الله بقـوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمــنين أعــزة على الكــافرين يجاهــدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ المائـدة [54] ، وعلى هـذا بـايع النفر الأوائل من الأنصــــار في بيعة العقبة كما قــــال عبـــادة بن الصـامت : بايعنا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم على السـمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكــره وعلى أثــرة علينا وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عنـدكم من الله فيه برهـان ، وعلى أن نقـول الحق أينما كنا لا نخـاف في الله لومة لائم (أخرجه البخاري في كتاب الفتن ، باب قول النـبي صـلى الله عليه وسلم سترون بعـدي أمـوراً تنكرونها (الفتح)(13/7) ، ولهـذا أيضاً كان ((أفضل الجهاد كلمة حق عند سـلطان جـائر)) أخرجه أبو داود في كتــــاب الملاحم ، بـــــاب الأمر والنهي (4244)(4/514) وأخرجه الترمـــذي في كتـــاب الفتن ، بـــاب ما جـــاء في أفضل الجهاد(شاكر)(4/471) .

وليست الجرأة تهـوراً كما أن الحكمة ليست جنبـاً ، والمـزج بينهما هو المطلوب الـذي ينبغي اتصـاف الداعية به في معاملته للآخـرين وفي المواقف العصيبة ، وعـدم وجـود الجـرأة والشـجاعة يسـتلزم وجود ضدهما وهو الجبن والذلّة اللذان لا يليقان بالداعية بحـال لأنه ((إذا لم يكن الداعية المسـلم شـجاعاً مطيقـاً لأعبـاء الرسـالة ، ســريعاً إلى تلبية نــدائها ، جريئــاً على المبطلين ، مغــواراً في ساحاتهم فخير له أن ينسحب من هـذا المجـال وألاّ يفضح الإسـلام بتكلف ما لا يحسن من شئونه)) مع الله (ص:211) .

والجرأة تنبعث من اجتماع خلقين عظيمتين :-

أولهما : امتلاك الإنسان لنفسه وانطلاقه من قيـود الرهبة والرغبة ، وارتضاؤه لوناً من الحياة بعيداً عن ذل الطمع وشهوة التنعم .

وثانيهما : إيثار ما عند الله والاعتزاز بالعمل له ، وترجيح جنابه على جبروت الجبارين ، وعلى أعطيـات المغـدقين (مع الله (ص: 215-217) .

ولقد كـان الرســول القائد صــلى الله عليه وســلم أحسن النــاس وأجــود النــاس وأشــجع النــاس ، ولقد فــزع أهل المدينة ذات ليلة فـانطلق النـاس قبل الصـوت ، فاسـتقبلهم النـبي صـلى الله عليه وسلم ، قد سبق النـاس إلى الصـوت وهو يقـول: ((لم تراعـوا ، لم تراعــوا)) ، وهو على فــرس لأبي طلحة عُــري ما عليه ســرج في عنقه سيف)) أخرجه البخـاري في كتـاب الأدب ، بـاب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (الفتح) (10/455) ، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب في شجاعة النـبي صـلى الله عليه وسـلم (النــووي)(15/67) وقد تــرجم البخــاري لهــذا الحــديث في بعض الأبواب فقال باب مبادرة الإمام عند الفزع (6/122) وقـال النـووي : فيه بيــان شــجاعته صــلى الله عليه وســلم من شــدة عجلته في الخروج إلى العدو قبل النـاس كلهم بحيث كشف الحـال ورجع قبل وصول الناس (15 /68) .

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام في سائر الغـزوات ففي يــوم بــدر يقول علي رضي الله عنه : ((لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برســول الله صـلى الله عليه وسـلم وهو أقربنا إلى العـدو ، وكـان من أشد النــــاس يومئذ بأســـاً)) أخرجه الحـــاكم في المســـتدرك(2/143) وصححه ووافقه الذهبي .

ويوم أحد انكشف المسلمون واضطربت صفوفهم فكان صـلى الله عليه وسلم هو الثابت حتى اجتمعت حوله كوكبة الفداء الإيمانية .

ويوم حنين كان يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وثبت حتى فاء الناس إليه وجاهدوا معه فكان النصر .

وفي غـير المعـارك كـانت الجـرأة في الحق سـمة بـارزة في حياته صلى الله عليه وسلم بل كانت حياته عملياً في تلقين الجرأة لتأخذ مسارها متجـاوزة حـواجز الحيـاء والمجاملة ، كما تجـاوزت حـواجز الخوف والجبن ، فها هي عائشة تقصُّ علينا خبر المــرأة المخزومية التي سرقت في غزوة الفتح فأهم قريش أمرها ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقـالوا : ومن يجـترئ عليه إلا أســامة بن زيد حب رســول الله صــلى الله عليه وســلم ، فلما كلمه تلون وجهه عليه الصـلاة والسـلام وقـال : أتشـفع في حد من

حــدود الله ، فعــرف أســامة الغضب في وجهه ، وأدرك خطأ فعله فقال : استغفر لي يا رسول الله ، ثم قام فخطب الناس فكان مما قال : ((إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سـرق فيهم الضـعيف أقـاموا عليه الحد ، وإني والـذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)) أخرجه البخاري في كتاب الحدود ، بـاب كراهية الشـفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان (الفتح)(12/87) وقــال ابن حجر في الفتح (12/96) وفيه تــرك المحابــاة في إقامة الحد على من وجب عليه ولو كــان ولداً أو قريبـاً أو كبـير القـدر ، والشـديد في ذلك والإنكـار على من رخص فيه أو تعرض للشفاعة فيمن وجب عليه .

وأرى أن من المناسب أن نمضي في جولة نقف خلالها على مواقف جرأة وقعت من بعض أعيان الأمة وعلمائها ودعاتها ، لــنرى آثــار تلك المواقف ومنافعها ، وأهميتها في نجــاح الداعية المقــدام الجــريء ، وهــذه أمثلة من عصور مختلفة وفي ظروف متباينة:-

1- كانت المصـيبة عظيمة ، والرزية فادحة ، بوفـاة النـبي صـلى الله عليه وسـلم وأصـيب الصـحابة الـذين تعلقت قلـوبهم به محبة ، وارتبطت حيــاتهم به قــدوة بخطب جلل طاشت منه العقول ، وانخلعت القلوب ، واضطربت النفوس ، حـتى أنكر الأشـــداء من أمثــال عمر بن الخطـــاب موته عليه الصـــلاة والســلام ، ثم جــاء أبو بكر الصــديق رضي الله عنه أقــرب المقـربين ، وأحب الأحبـاء ، رفيق الغـار والهجـرة ، وسـابق الإيمان والصحبة ، فكـانت المصـيبة عليه أعظم لكنها لم تنل حظها الـــــوافر من قـــــوة إيمانه ورباطة جأشه ، وفي ذلك الظرف العصيب ، والحيرة تشـغل العقـول ، والحـزن يعتصر القلوب ، قام أبو بكر في جرأة نادرة وصـاح بالنـاس : ((من كان يعبد محمـداً صـلى الله عليه وسـلم فـإن محمـداً صـلى الله عليه وسلم قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت)) ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ وقوله جل وعلا ﴿وما محمد إلا رســـــول قد خلت من قبله الرسل أفــإن مــات أو قتل انقلبتم على أعقــابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ ، ((فثاب الناس إلى رشدهم ، وعلموا حقيقة أمـرهم)) البداية والنهاية (5/241) .

2- جــاء أشــراف بــني أمية عمر بن عبد العزيز بعد أن تــولى الخلافة رجاء أن ينالوا منه الحظوة ، ويحصلوا على الولايــات والأعطيات فقال: أتحبـون أن أولي كل رجل منكم جنـداً من هــذه الأجنــاد ، فقــال له رجل منهم : لم تعــرض علينا ما لا تفعله ؟ قال : ترون بساطي هـذا ؟ إني لأعلم أنه يصــير إلى بلى ، وأني أكــره أن تدنســوه علي بــأرجلكم فكيف أوليكم ديني ؟ وأوليكم أعراض المسلمين وأبشارهم تحكمـون فيهم ؟ هيهات هيهات ، فقــالوا : لم ؟ أما لنا قرابة ؟ أما لنا حق ؟ قـال : ما أنتم وأقصى رجل من المســلمين عنـدي في هــذا الأمر إلا سـواء ، إلا رجل حبسـته عـني طـول الشـقة (نزهة الفضلاء (1/477-478) .

3- الإمام عبد العزيز بن يحي الكتـاني المكي الـذي عـايش فتنة خلق القـرآن وسـمع بانتشـارها ورواجها في بغـداد فعز عليه ذلك فقـدم على بغـداد فهاله أنَّ ما رأى من أثر هـذه البدعة أعظم مما ســمع ، فجعل يفكر في عمل يعلن من خلاله عن الحق الذي خفت صوته ، وخاف النـاس من إظهـار اعتناقه ، قــال : فــأجمعت رأيي على إظهــار نفسي وإشــهار قــولي ومــذهبي على رؤوس الأشــهاد والقــول بمخالفة أهل الكفر والضلال والرد عليهم ، وذكر كفـرهم وضـلالتهم ، وأن يكـون ذلك في المسـجد الجـامع في يـوم الجمعة لأني رأيت – إن فعلت ذلك – أنهم لا يعجلون عليَّ بقتل ولا عقوبة بعد إشهار نفسي والنـــــــــــداء بالمخالفة على رؤوس الخلائق إلا بعد مناظرتي وسماع قولي ، وهذا هو مطلبي .

وصلى يوم الجمعة في الصف الأول أمام المنبر فلما سلم الإمــام ، نهض قائمــاً على رجليه لـيراه النـاس ويسـمعوا كلامه ، ونـادى بــأعلى صــوته مخاطبــاً ابنه الــذي اتفق معه أن يقف أمامه بين الصفوف ، فقال : يا بني ما تقـول في القـرآن ؟ قـال : كلام الله مــنزل غــير مخلــوق ، فلما ســمع النــاس ذلك ولو هــاربين ومن المسـجد خـارجين خوفـاً وجبنـاً ، ولم يلبث أعـوان السـلطان أن أمسـكوا به ، ولما مَثَل بين يـدي كبـير من كـبرائهم فعنفه فسـأله عن سبب صنيعه وجهره بقوله مع علمه بمخالفته لأمير المؤمــنين قال : ما أردت إلا الوصول إلى أمير المؤمنين والمناظرة بين يديه ، وتم له ما أراد فناظر بشـراً المريسي بين يـدي المـأمون وعلاه بالحجة (مختصر من الـــــــدلائل النورانية (110-117) وهو عن

الحيـدة (3-14)ـ ، فسر المسـلمون بـذلك وجعل النـاس يجيئونه أفواجاً يهنئنونه ويسألونه عن المناظرة .

4- قـام مصـطفى كمـال أتـاتورك بـأعظم جريمة ضد العـالم الإسـلامي عنـدما أصـدر في 15 فـبراير عـام 1924م ثلاثة قرارات هي :

1- إلغاء الخلافة .
2- إلغاء وزارة الأوقاف والأمور الشرعية .
3- توحيد التعليم .

وقــرر في الواقع العملي المنهج العلمـاني في فصل الــدين عن الدولة ،ونادى بأن تركيا جزء من العالم الغربي ،ومضى يغير كل شيء له صلة بالإسلام في تركيا ،حـتى أصـدر في عـام 1925م قانون الملابس الذي ينص على إبدال القبعة بالطربوش ،ويقــرر عقوبة على من يلبس الطربـوش الـذي كـان اللبس الشـائع بين المســلمين ويلــزم بلبس القبعة تأســياً بــالغربيين وتشــبهاً بهم ،وتعظيماً لهم .

وهنا بـرزت نمـاذج عديـدة من جـرأة العلمـاء العـاملين والـدعاة المصلحين ومن بينهم الشـيخ عـاطف أفنـدي الإسـكيليبي الـذي تصدى لهذه الهجمة التغريبية ،حتى ذكر في بعض كتبه ((أن بيعة المســلمين للخليفة أمر واجب وهو ثــابت بالعقل والشــرع)) ثم دلل على ذلك وقرر أن ((وجب تعيين الخليفة أمر ثـابت بإجمـاع الأمة بطريق الأدلة الشــرعية)) ، ثم كتب رســالة عن المــرأة المسلمة وحجابها بعنوان ((التستر الشرعي)) وذلك في مواجهة التهتك العلمــاني الغــربي ، ثم ألف رســالته الشــهيرة ((تقليد الفرنجة والقبعة)) نعى فيها على المقلدين للغرب تقليــداً أعمى ، والمتشــبهين بالكفــار وحكمهم وذكر القبعة مثــالاً على ذلك وكــان لهــذه المواقف والرســائل أثرها الكبــير في نفــوس المسلمين ومواقفهم وصداها الواسع في منتدياتهم ومجالسهم ، مما حدا بأتاتورك وزمرته أن يقبضوا على شـيخ عـاطف ، وقـدم بعد ذلك للمحكمة بخصوص رسالة القبعة في 26/ينـاير/1926م ، وصــــدر بحقه حكم الإعــــدام ونفذ فيه رحمة الله وتقبله في الشهداء (العثمانيون في الحضارة والتاريخ(ص:221-236) .

وهكذا فنحن نرى لمواقف الجرأة أثـراً عظيمـاً في المجتمعـات وخاصة في الأزمات ، والملمات وما لم يكن الداعية هو المتقدم الباذل فمن يكون ؟ .

كلا ليس لها إلا أنت أيها الداعية ، فما أجـدى أن يكـون الداعية ((صـلب العـود ، عظيم المـراس ، لا يميل مع كل ريح ، ولا يضعف أو يلين أمام أي قوة ، ولا ينحني مع أي خلة ، ولا يندهش أمـام أي مفاجـأة ، أو يحـزن عند أي مصـيبة لتوجهه إلى الله بكليته ، واعتماده عليه في كل نائبة ، واحتباسه العـوض منه عن كل شـيء ،فحبيبه الأوحد هو الله ، وهو ذخيرته وملجـؤه وهو هدفه وغايته ، وبـذلك تكـون شـجاعته كاملة ، وبطولته خالـدة ، وأخلاقه فاضلة ، وصبره معيناً لا ينفذ)) العثمانيون في الحضـارة والتاريخ (ص:221-236) .

المبحث الثالث : الاستغناء والعطاء :

شـعار عظيم رفعه على طريق الـدعوة الرسل والأنبيـاء عنـدما تكرر في خطابهم لأقوامهم ﴿وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على رب العالمين﴾ الشـعراء [109]ـ ، والرجل المـؤمن في سـورة يس عنـدما دعا قومه لاتبـاع المرسـلين علل لهم ذلك بقوله ﴿اتبعـوا من لا يسـألكم أجـراً وهم مهتـدون﴾ يس [21]ـ ، والدعاة سائرون على منهج الأنبياء فلا ينتظرون من أحد عطاء ، ولا يرقبـون من إنسـان مكرمة ، وأنى يكـون ذلك ؟ وكيف يفكرون في مثل هذا الأجر الدنيء والعـرض الزائل ؟ كلا إنهم لا تنشـغل عقـولهم بمثل هـذا التفكـير لأنها مشـغولة بالرجـاء في قوله تعـالى ﴿ولأجـرة الآخـرة خـير للـذين آمنـوا وكـانوا يتقـون﴾ يوسف [57]، ولا تتعلق قلوبهم بشيء من حطام الـدنيا وعطايا النـاس لأنها متعلقة بقوله تعـالى ﴿ولأجر الآخـرة أكـبر لو كـانوا يعلمـون﴾ النحل [41]إنهم يرغبـون في نـوع آخر من الأجر غـير ممنون ولا مقطوع ﴿إلا الذين آمنـوا وعملـوا الصـالحات لهم أجر غـير ممنـون﴾ الانشـقاق [25]ـ ،﴿وأما الـذين سـعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شـاء ربك عطـاء غير مجذوذ﴾ هود [108] .

إن صورة الداعية لا تجمل ولا تكمل إلا باسـتغنائه عما في أيـدي الناس وما من شيء يذهب أثر الدعوة ويمحو عـزة الداعية مثل سـؤال النـاس أو انتظـار عطـائهم ، إنه حينئذ لا يكـون داعية بل يصبح تـاجراً فـاجراً يتـاجر بالـدين ، يشـابه فعل اليهـود ﴿الـذين يشترون بعهد الله وإيمـانهم ثمنـاً قليلاً﴾ آل عمـران [77] وبهـذا السـلوك يكـون الداعية ممن يصـدون عن دين الله كما بين ذلك

الله جل وعلا في قوله ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سـبيله﴾ التوبة [9] وذلك من أعظم البلاء ، ولـذا ((ينبغي أن يتعفف الداعية عما في أيدي الناس ليظل عزيزاً مرفوع الـرأس ، قـادراً على أن يقـول ما يريد وأن يبلغ ما يلـزم إبلاغه دون أن يحمل منة في عنقه لأحد تجعله مغلول اليد أو مغلـول اللسـان ، وبقـدر ما يسـتطيع الداعية أن يحقق لنفسه من العفة والـورع بقدر ما يكتسب من تقدير وقدرة وإمكانية)) مع الله (ص:74) .
نعم لا بد أن يميز الدعاة ((زهدهم في زخارف الـدنيا ، وفضـول العيش ، ونهامة المادة ، ومـرض التكـاثر ، فـإنهم لا يسـتطيعون أن يـؤثروا فيمن يخـاطبونهم ، ويحملـون على إيثـار الـدين على الدنيا ، والآجلة على العاجلة ، وتلبية نداء الضـمير والإيمـان على نداء المعدة والنفس والشـهوات)) وذلك لأن ((النـاس ما زالـوا ولا يزالون مفطـورين على الإجلال لشـيء لا يجدونه عنـدهم ... فإذا رأى الناس علمـاء ودعـاة لا يقلـون عنهم في حب المـادة ، والجري ورائها ، والتنافس في الوظائف والمناصب, والإكثار من الـثراء والرخـاء ، والتوسع في المطـاعم والمشـارب ، وخفض العيش ولين الحياة فإنهم لا يرون لهم فضـلاً عليهم ، وحقـاً في الـدعوة إلى الله ، وإيثـار الآخـرة على الـدنيا ، والتمـرد على الشهوات ، والتماسك أمام المغريات ، وقد قيل فاقد الشـيء لا يعطيه)) بعض سمات الدعوة المطلوبة في هـذا العصر ، ضـمن أبحـاث وقـائع اللقـاء الخـامس لمنظمة النـدوة العالمية لشـباب الإسلامي (ص:410) .
هـذا هو سـمت أهل العلم والإيمـان ذكـره الله جل وعلا لنا في قصة قـارون يـوم خـرج على قومه في زينته ، فتـاقت إلى حاله ودنياه نفوس الضعفاء لأن قلوبهم خواء ، وجاء الجـواب حاسـماً من أهل العلم والإيمان لأن في قلـوبهم غنـاء ﴿ويلكم ثـواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً وما يلقاها إلا الصـابرون﴾ القصص [80] .
وتكتمل شخصـية الداعية ويعظم تـأثيره إذا ضم إلى الاسـتغناء العطـاء ، وما الـدعوة إلاَّ عطـاء دائم يبـذل فيه الداعية من مشاعره ومن وقته ومن ماله ومن جاهه ومن قوته ومن حيلته حتى يبلغ الغاية ببذل نفسه وإعطاء روحه جهـاداً في سـبيل الله وتضحية من أجل الـدعوة إلى الله ﴿لن تنـالوا الـبر حـتى تنفقـوا مما تحبون﴾ آل عمران [92] .

التـاريخ يشـهد أن الـدعاة إذا اغتنت قلـوبهم بالمعـاني الإيمانية واستغنت عن المتع الدنيوية استسهلوا الصعب غير مسـتثقلين ، وركبوا الأخطار غـير عـابئين وواجهـوا الأخطـار غـير خـائفين ، لا تثنيهم رهبة ، ولا تستميلهم رغبة .
وانظر إلى ربعي بن عـامر رضي الله عنه يـوم قـدم إلى أبهة الملك ، بما فيها من متـاع الـدنيا وزخرفها ، فـوطئ الطنـافس بأقدامه ، وخرقها برمحه ، واسـتغنى واسـتعلى بإيمانه ، وقـال قولته المشهورة التي ما تزال تـدوي في سـمع الزمـان : ((جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبـادة رب العبـاد ، ومن جـور الأديـان إلى عـدل الإسـلام ، ومن ضـيق الـدنيا إلى سـعة الـدنيا والآخرة)) .
ويوم أسر عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه ، قال له ملك الـروم : هل لك أن تتنصر وأعطيك نصف ملكي ؟ فقـال : لو أعطيتـني جميع ما تملك ، وجميع ملك العـرب ما رجعت عن دين محمد صـلى الله عليه وسـلم طرفة عين ؟ ، قـال : إذاً أقتلك ، قال : أنت وذاك ؟ سير من أعلام النبلاء (2/14) .
إنها المواقف التي رجمها الزبيدي شعراً عاصفاً رائعاً فقال :

خذوا كل دنياكمُ واتركوا فؤادي حراً وحيداً غريباً
فإنـي أعظمكم دولـة وإن خلتموني طريداً سليباً

وصـاغها الـرافعي الأديب من قـاموس الحكمة في كلمـات في غاية القـوة فقـال : ((إذا رمتك المطـامع بالحاجة الـتي لا تقـدر عليها ، رميتها من نفسك بالاستغناء الـذي تقـدر عليـه)) نقلاً من المنطلق)وتكررت بعد جيل الصحابة مرات ومرات جـددها أئمة الدعاة من الثقات الأثبـات فهـذا عيسى بن يـونس حـدث الأمين والمـأمون فـأمر له المـأمون بعشـرة آلاف درهم فلم يقبلها ، فظن أنه استقلها "أي رآها قليلة"، فأمر له بعشرين ألفاً ، فقال عيسى : لا ولا إهليلجة ولا شـربة مـاء على حـديث رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، ولو ملأت لي هـذا المسـجد ذهبـاً إلى السـقف ، فانصـرف من عنـده)) الجـامع لأخلاق الـراوي وآداب السامع (1/357) .
وفي وقت اشتداد الأزمة إبان فتنة خلق القرآن دعي عفان بن مسلم للمحنة فلما حضر عُـرض عليه القـول ، فـأبى أن يجيب ، فقيل له : يحبس عنك عطاؤك ، وكان يعطي في كل شـهر ألف درهم ، فقال :وفي السماء رزقكم وما توعدون الذريات [22]

، فلما رجع إلى داره عزله نساؤه ومن في داره ، قال الرواي : وكان في داره نحو أربعين إنساناً (نزهة الفضلاء (2/762).

وليس الأمر مقتصراً على الاستغناء عما في أيدي الأمراء بل هو كـذلك بالنسـبة للتعامل مع المـدعوين والتلاميذ فقد وجه بعض مشايخ مـرو إلى علي بن حجر بشـيء من السـكر والأرز وثـوب فرد عليهم بقصيدة قال فيها :

جاءني عنك مرسـل بكلام فيه بعض الإيحاش والإحشام
فتعجبـت ثم قلـت تعـالى ربنا ذا من الأمور العظـام
خاب سعيي لئن شريتُ خلاقي بعد تسعـين حجة بحطـام
أنا بالصبر واحتمالي لإخواني أرجِّي بحلـول دار السـلام
والذي سميتـه يزري بمثلـي عند أهل العقـول والأحلام

وأهدى أصحاب الحديث الأوزاعي هدية فلما اجتمعوا عنده ، قال لهم : أنتم بالخيـار إن شـئتم قبلت هـديتكم ولم أحـدثكم ، وإن شـئتم حـدثتكم ورددت هـديتكم (الجـامع لأخلاق الـراوي وآداب السامع (1/357) .

وجمع الشيخ عاطف أفندي بين الموقفين مع أصحاب السـلطان ومع عامة الناس ، فقد ((دعي إلى طعـام الإفطـار في رمضـان مع السلطان وحيد الدين ، وتقدم السلطان بهدية للشيخ تقـديراً له ورجاه أن يقبلها فاعتذر قائلاً : استسمحكم ألا تعـودوني على تلقي الإحسان .

وذات يوم أهداه فـرَّاش متقاعد ممن يحبونه ويجلونه بعضـاً من الحلوى صنعها خصيصاً للشـيخ فاعتـذر منه وقـال له : سـامحني لأنني لم أستطع قبول هديتك ، سـامحني فـإن مهنـتي والقضـية الــتي أعمل لها حساسة للدرجة الــتي لا أســتطيع معها تحمل مثقال وطأة المنفعة المادية)) العثمانيون في التاريخ والحضـارة (ص:229-230) .

وبقدر أهمية الاستغناء تأتي أهمية العطاء الذي له أثره الأبلغ في النفـوس لملامسـته لمصـالحهم ، وقضـائه لحاجـاتهم ، وقد كـان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم –كما قـال أنس- ما سـئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه وقال : يا قوم أسلموا فإن محمـداً يعطي عطـاءً لا يخشى الفاقة (أخرجه

مسلم في كتـاب الفضـائل ، بـاب ما سـئل الرسـول صـلى الله عليه وسلم عن شيء قط فقال لا (عبد الباقي)(4/1806) .
وهذا صفوان بن أمية رضي الله عنه يقول : لقد أعطـاني النـبي صلى الله عليه وسلم وإنه لأبغض الناس إلي ، فما زال يعطيـني حتى إنه لأحب الناس إلي (الإصابة (2/187) .
وأبو بكر خرج من ماله كله بـذلاً في سـبيل الله ، ونصـرة لـدين الله ، وعمر أنفق في هـذا السـبيل شـطر ماله ، وعثمـان جهز جيش العسـرة وكـان رائـداً للمنفقين ، وكـذا كـان عطـاؤهم لـدعوتهم ، ومثله عطـاؤهم للنـاس عظيمـاً تقـوى به الـدعوة ، ويُتألف به المدعوين .
وليس العطــاء محصــوراً في المــال ، بل هو أوسع من ذلك إذ يشمل كل عون يقدمه الداعية للمدعوين ، وكل معروف يسـديه لهم ، فقد يعطيهم من وقته أو جهــده أو فكــره بل حــتى من بشاشة وجهه وحسن استقباله ، وميدان العطاء بالنسبة للداعية فسيح ، وأثـره كبـير ، فينبغي أن يكـون فيه مسـابقاً ومنافسـاً ، ومحققــاً لما أوصى به الشــيخ البنا الداعية بقوله : ((أن تكــون عظيم النشاط ، مدرباً على الخدمات العامة ، تشـعر بالسـعادة والسرور إذا استطعت أن تقدم خدمة لغيرك من الناس ، فتعود المريض وتساعد المحتاج ، وتحمل الضعيف ، وتواسي المنكوب ولو بالكلمة الطيبة وتبادر دائماً إلى الخيرات)) مجموعة رسـائل البنا(ص:21) .
والدعاة ينبغي أن يحرصـوا على الخـدمات العامة ويخصصـوا لها من أفرادهم وجهودهم ما يلائمها ، فلا بد أن يكونوا هم العـاملين في الهيئات الإغاثية ، ومشاركة في اللجان الخيرية ، والمشـاريع الصحية ونحو ذلك ، ليكونوا أكثر صلة بالناس وأشد قربـاً منهم ، وليحوزوا من خلال الخدمة والعطاء استجابة المدعوين وتـأثرهم ، إضافة إلى أنهم بذلك يـبرزون صـورة عملية لشـمولية وتكامل الإسلام ، ولصدق وخيرية الدعاة .
ولقد أشـــــــارت خديجة رضي الله عنها إلى أثر الخدمة العامة والعطاء الدائم عندما نزل الوحي وقـال الرسـول الكـريم صـلى الله عليه وسلم : لقد خشـيت على نفسي ، فقـالت له : ((والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحــديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعـدوم ، وتقـري الضـيف ، وتعين على نـوائب الحق)) فيا سـبحان الله تأمَّل هـذه الصـور المتنوعة من العطـاء

وقد تحلى بها الرسـول صـلى الله عليه وسـلم قبل بعثته فكيف إذن كان بعدها ؟ .

المبحث الرابع : الاستمرار والابتكار

إن العمل المنقطع يتبـدد أثـره ، والعمل المتكـرر يـورث الملل ، ويفقد الحماس ، ثم إن توقف الداعية وعدم استمراريته في دعوته دليل خلل في فهمه ، أو ضعف في عزمه ، وتكراره وعـدم ابتكـاره يشير إلى قلة حيلته وضعف بصيرته ، وما هكـذا يكـون الداعية ، بل الداعية نشـاط متـدفق ، وتجديد متـألق ، عمل لا يكل ، وتفكـير لا يمل .

والـدعاة لهم في هـذا البـاب مثل عظيم جـداً في قصة نـوح عليه السـلام حيث لبث في قومه داعيـاً ﴿ألف سـنة إلا خمسـين عامـاً﴾ العنكبوت [29] ، وكانت هذه الأعوام الطويلة عملاً دائباً ، وتنويعاً متكرراً ﴿قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدهم دعـائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصـابعهم في آذانهم واستغشـوا ثيـابهم وأصـروا واسـتكبروا اسـتكباراً ، ثم إني دعـوتهم جهاراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾ نوح [5-9] ، رغم امتداد الزمن الطويل ، ما توقف عن الـدعوة ولا ضـعفت همته في تبليغها ، ولا ضـعفت بصـيرته وحيلته في تنويع أوقاتها وأسـاليبها ، قال الألوسي في تفسيره : ﴿رب إني دعوت قومي﴾ أي إلى الإيمان والطاعة ، ﴿ليلاً ونهاراً﴾ أي دائماً من غير فتور ولا تـوان ، ثم وصف إعراضـهم الشـديد، وإصـرارهم العنيد ، ثم علق على قوله تعـالى: ﴿ثم إني دعـوتهم جهـاراً ثم إني أعلنت لهم وأسـررت لهم إسـراراً﴾ فقـال :أي دعـوتهم مـرة بعد مـرة ، وكـرة غبَّ كـرة، على وجـوه مختلفة وأسـاليب متفاوتـة، وهو تعميم لوجـوه الـدعوة، بعد تعميم الأوقـات، وقوله ﴿ثم إني دعـوتهم جهـاراً﴾ يشـعر بمسـبوقية الجهر بالسـر، وهو الأليق بمن همه الإجابة لأنه أقـرب إليها لما فيه من اللطف بالمدعو (تفسير الألوسي (10/89) .

فانظر إلى استمراريته في الدعوة رغم شدة الإعـراض والعنـاد، لم يدفعه ذلك الإعـراض إلى التوقـف، ولا لممارسة الـدعوة بصـورة عادية لا روح فيها بل على العكس دفعه الإعراض ليواصل المحاولة مع تنويع الأسـاليب وابتكـار طـرق جديـدة لتبليغ الـدعوة، وتزيـده حماسة على ((جعل دعوته مظروفة في زمني الليل والنهار للدلالة على عـدم الهـوادة في حرصه على إرشـادهم وأنه يترصد الـوقت

الــذي يتوسم أنهم فيه أقــرب إلى فهم دعوته منهم في غــيره من أوقات النشاط وهي أوقات النهار، ومن أوقات الهدوء وراحة البــال وهي أوقات الليل)) التحرير والتنوير(29/194) ، ((وتوخي ما يظنه أو غل إلى قلــوبهم من صــفات الــدعوة، فجهر حيث يكــون الجهر أجدى مثل مجامع العامة، وأسرَّ للذين يظنهم متجنبين لـوم قـومهم عليهم في التصدي لسماع دعوته)) التحرير والتنوير(29/197).

ولنا مثل في قصة يوسف عليه السـلام لما دخل السـجن مظلومـاً، حيث انتهز الفرصة ومارس الدعوة .

والاستمرارية خـير كما قـال عليه الصـلاة والسـلام ((أحب الأعمـال إلى الله أدومها وإن قلَّ)) قال المناوي: ((أدومها : أي أكثرها ثوابـاً، وأكثرها تتابعاً ومواظبـة))، وذكر منـافع العمل الـدائم فقـال: ((لأن النفس تألفه فيدوم بسببه الإقبال على الحق، ولأن تارك العمل بعد الشـروع كـالمعرض بعد الوصـل)) ثم قـال : ((وفيه فضـيلة الـدوام على العمــل)) فيض القــدير(1/165-166)، ولقد خــوطب عليه الصلاة والسلام بقوله تعـالى ﴿واعبد ربك حـتى يأتيك اليقين﴾ الحجر [99]، فظل يدعو إلى الله ويبلغ رسالة الله حتى وهو على فـراش المـــوت يوصي أمته كما ورد عن عائشة رضي الله عنها قــــالت: ((قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم في مرضه الـذي لم يقم منه :لعن الله اليهود والنصارى اتخـذوا قبـور أنبيـائهم مسـاجد)) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته (الفتح)(8/140) .

وبالنسبة للتنويع والابتكار فإن الرسـول صـلى الله عليه وسـلم دعا سراً وجهراً ، وسلماً وحرباً، وجمعاً وفرداً، وسفراً وحضـراً، كما أنه عليه الصـلاة والسـلام قصَّ القصص ، وضـرب الأمثـال ، واسـتخدم وسـائل الإيضــاح بالخط على الأرض ، وغـيره ، كما رغَّب وبشَّــر ، ورهَّب وأنذر ، ودعا في كل آن ، وعلى كل حال وبكل أسلوب مؤثر فعال .

والصحابة الكرام من الخلفاء الراشدين طبقـوا قاعـدتي الاسـتمرار والابتكــار ونكتفي بالإشــارة إلى بعض ذلك في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فــــــــأبو بكر رضي الله عنه أعلن في كلمته العظيمة عند وفاة الرسـول صـلى الله عليه وسـلم إنها اسـتمرارية الدعوة وعدم ارتباطها بشخص الرسـول صـلى الله عليه وسـلم بل هي دعـوة لله مسـتمرة مـدى الحيـاة ، ثم طبق هـذا عمليـاً فأنفذ جيش أسـامة وقاتل المرتـدين بأحد عشر جيشـاً ثم بعث الجيـوش

إلى الفـرس والـروم ، كما أنه أمر بجمع القـرآن وخالفه الصـحابة أول الأمر ثم أجمعوا على رأيه لما فيه من مصلحة الأمة .
وعمر رضي الله عنه أتم فتـوح الشـام والعـراق ثم فتح مصر وبيت المقدس . وفي شأن الابتكار والاجتهاد ورعاية مصالح الأمة ومنـافع الدعوة كانت له آثار عظيمة فقد دوَّن الـدواوين مثل ديـوان الجنـد، وديوان العطاء ، وديوان الأعمال وديوان الإنشـاء (أوليـات الفـاروق السياسـية (ص:300-304)، وفي مجـال الاجتهـاد في المحافظة على تماسك الأســـــرة والمجتمع أمضى طلاق الثلاث ردعــــــاً للمتساهلين (أوليات الفاروق السياسـية (131-138)، وفي مجـال التشجيع على التعليم قرر الجوائز للمشتغلين بحفظ القرآن الكريم (أوليات الفاروق السياسية (ص:116-119) ، كما قام بجعل أرض السواد وقفـاً لجميع المسـلمين فكـان لـذلك أثـره في إنهـاء نظـام الطبقية والإقطاع ، كما أدى إلى دخـول أهل تلك البلاد في الإسـلام ، وقطع الطريق على عودة جيوش الـروم والفـرس ، وإضـافة إلى إيجاد موارد مالية لتأمين الثغور وتجهيز الجيوش (الدعوة الإسـلامية في عهد عمر بن الخطاب (ص:126-137) .
وفي واقعنا المعاصر تزداد الحاجة إلى الاستمرار والابتكار سيما مع كـثرة العصـاة والجنـاة من المسـلمين إضـافة إلى تطـور أسـاليب التبليغ ووسائل الإعلام ، بما فيها من ترغيب وتشويق وتجديد وتنويع استغله أعـداء الإسـلام لبث الأفكـار الشـاذة ، وغـرس السـلوكيات المنحرفة، ولا ينبغي أن تبقى هذه الوسـائل حكـراً على المحـاربين للإســلام ، يعرضــون فيها بضــاعتهم ، في قــوالب براقة ، ويبقى الـدعاة جامـدين لا ينشـطون ولا يجـددون ، بل على الـدعاة ((أن يبلغوا الناس ما يجب عليهم في أمور دينهم ودنياهم من كل الطرق كطريق الإذاعة والتلفاز والصحافة وطريق الخطابة في المجتمعات ، وفي الحفلات المناســبة ، ومن طريق التــأليف ومن كل طريق يمكن منه تبليغ شرع الله)) مجموع فتاوى ابن باز (5/18) ، وهناك الكثير من الوسائل الإيضاحية التي يمكن الإفـادة منها ، إضـافة إلى وجود قنوات تـأثير واسـعة جـاءت ضـمن أنمـاط الحيـاة المعاصـرة كالنقابــات المهنية ، والمؤسســات الاجتماعية وغيرها مما لا بد للدعاة أن يحسنوا التعامل معها والاستفادة منها .
وكل وسيلة مؤثرة ليس فيها ما يخالف الشـرع أو يعـارض مصـلحة الدعوة فالأخذ بها استمرارية وتوسيع لنشاط الدعوة مع ما فيه من التنويع الذي يزيد به الإقبال على الدعوة والتأثر بها .

الفصل الخامس : مقومات مفاهيم الداعية :

الفهم والتصور من الأمور المهمة التي تبنى عليها الأعمـال ، وبعض ما مضى من المقومات الشخصية في فروعها كثير من المفـاهيم ، غـير أن إيجـاز القـول فيها جعلـني أفـرد هـذه المفـاهيم بالحـديث اسـتقلالاً ، إضـافة إلى أن إفرادها والتركـيز على المهم منها يفيد الداعية ويعينه على النجـاح ، ويجنبه موجبـات الفشل والإخفـاق ، خاصة وأنها مفاهيم مرتبطة بالواقع المعاصر ، وبالنشاط الدعوي .

المبحث الأول : مفاهيم حول الإسلام

الفهم الصحيح للإسلام أمر في غاية الأهمية بالنسبة للداعية ، وهذه أسس لا بد منها هذا الجانب :

1- ربانية الإسلام :

الإسـلام دين الله جل وعلا ﴿إن الـدين عند الله الإسـلام﴾ آل عمران [19]، وبالتالي مادام الإنسان عبداً لله فلا خيـار له ، بل لا بد أن يدين بدين الله ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ الأحـزاب [36] ، ومن ثم تتضح له غايته في الحيـاة ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ الـذاريات [56]، ويعـرف أن المقصد هو الله ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ النجم [42]، وأن الطمـوح والاجتهـاد والبـذل والتضـحية إنما هو النيل رضـوان الله ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ طه [84]﴿تـراهم ركعـاً سـجداً يبتغـون فضـلاً من الله ورضـواناً﴾ الفتح [29] ﴿الذين أخرجوا من ديـارهم وأمـوالهم يبتغـون فضـلاً من الله ورضواناً﴾ الحشر [8] .

ويندرج تحت ربانية الإسلام الفهم والإيمان بكمال الإسلام ﴿اليـوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمـتي ورضـيت لكم الإسـلام ديناً﴾ المائدة [3] ، فلا بحث إذن عن مناهج أرضية ، ولا مذاهب بشرية ، إذ هـذا الكمـال يغـني عن ذلك ، ويـبرز للإسـلام مزية لا ولن تكـون في غـيره إذ النقص مقطـوع به في مـذاهب البشر ونحل أهل الهوى ، والتحريف في الرسالات السـابقة مقطـوع به ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ المائدة [41] ، والمتاجرة بدين الله ثابتة ، والوقـائع بها ناطقة ﴿ثم يقولـون هـذا من عند الله ليشـتروا به ثمنـاً قليلاً﴾ البقـرة [79] والكفر بحكم اتبـاع هـذا التحريف والتلاعب لا يمكن الاختلاف عليه ، ولا الاجتهـاد فيه ﴿وقالت اليهـود عزير ابن الله وقـالت النصـارى المسـيح ابن الله

ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قـاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبـانهم أربابـاً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهـاً واحـداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون التوبة [30-31] .

2- شمولية الإسلام :

الإسلام ((دين شامل ، يشتمل على مصـالح العبـاد في المعـاش والمعــاد ، ويشــتمل كل ما يحتــاج إليه النــاس في أمر دينهم ، ويـــدعو إلى مكـــارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمـــال ، وينهى عن سفاسف الأخلاق وعن سيء الأعمال .

فهو عبادة وقيادة ، يكون عابداً ويكون قائداً للجيش .

عبادة وحكم يكـون مصـلياً صـائماً ، ويكـون حاكمـاً بشـرع اللـه، منفذاً لأحكامه .

عبادة وجهاد ، يدعو إلى الله ويجاهد في سبيل الله من خرج عن دين الله .

مصحف وسيف يتأمل القرآن ويتدبره وينفذ أحكامه بـالقوة ، ولو بالسيف إذا دعت الحاجة إليه .

سياسة واجتمــاع ، فهو يــدعو إلى الأخلاق الفاضــلة ، والأخــوة الإيمانية ، والجمع بين المسلمين والتأليف بينهم)) مجموع فتاوى ابن باز (1/147) .

((إنه دين يربط المخلـوق بخالقه بربـاط مـتين ، كما يقيم أفضل علاقة بين الإنســان وأهله وأقاربه ، وبين الإنســان وأخيه ســواء كـــان على دينه أو على غـــير دينه ، قائمة على العدالة والترابط والتســامح والتعـاون على الـبر والتقـوى، كما أوضح كيف يعامل الحيــوان الأعجم بــالرفق والرحمة والإحســان قبل أن تتظــاهر أوروبا بالرفق بالحيوان من خلال جمعيات أنشـأتها لهـذا الغـرض وهي لم ترفق بعد الإنسان ، ولم تـرع حقوقـه)) مجمـوع فتـاوى ابن باز (2/299) .

وقد انحسر هـذا المفهـوم الشـمولي للإسـلام في أواخر القـرن الماضي وبدايات هذه القرن مما حدا بكثير من العلمـاء والـدعاة إلى تأكيـده والتركـيز عليه وتنويع أسـاليب وعبـارات التعبـير عنه فهـذا الشـيخ حسن البنا يقـول : ((الإسـلام نظـام شـامل يتنـاول مظـاهر الحيـاة جميعـاً، فهو دولة ووطن ، أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقـــوة ، أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقــــانون ، أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهـاد ودعـوة ، أو

جيش وفكـرة، كما هو عقيـدة صـادقة وعبـادة صـحيحة سـواء بسـواء)) مجموعة الرسـائل للبنا (ص:7) ، ويقـول عن رسـالة الإسلام : إنها الرسالة التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الـزمن ، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم ، وامتدت عمقـاً حـتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة (انظر الخصـائص العامة للإسـلام (ص:105) .

والسـيد سـابق في كتابه إسـلامنا (إسـلامنا (ص:11)يقـول عن الإسلام : ((إنه استهدف تهذيب الفرد ، وتعاون الجماعة ، وإيجـاد حكم أساسه الشورى ، وغايته حماية الدين وسياسة الدنيا)) .

ومع كـثرة التـذكير إلا أنه توجد أفهـام قاصـرة - نتيجة لبعض الظروف أو الضغوط - تنحو نحو فهم جزئي للإسلام يقصره على بعض جوانبه دون بعض ،ويركز على بعض أحكامه وتشـريعاته دون بعضها الآخر، ولذا كان التحذير لازماً مع التذكير وليس هناك أعظم من التحـذير الإلهي في قوله تعـالى ﴿أفتؤمنـون ببعض الكتاب وتكفـرون ببعض فما جـزاء من يفعل ذلك منكم إلا خـزي في الحياة الدنيا﴾ البقرة [85].

ومن أبرز جوانب الإخلال بهذا المفهوم ترك الدنيا وأسباب القـوة فيها رغبة في الآخرة وإيثاراً لها – حسب فهمهم- وهؤلاء لا بد أن يعلموا أن ((عبودية الله توجب على أهلها مع ذلك (أي التعبد) أن لا يفرطـوا بنصـيبهم من مقومـات الحيـاة الـدنيا كشـأن أهل التصوف والدروشة ، بل لا بد من خـوض معركة الحيـاة وتسـخير جميع الماديات واكتسـاب ما أمكن منها بـالطرق المباحة ليتمكن من أداء رسـالته في الحيـاة بالإنفـاق في سـبيل الله من كافة الوجـوه ، ويتماسك كيانه مع إخوانه المؤمـنين ، فتكـون لهم اليد الطولى التي يقدرون بها على الصلاح والإصـلاح في الأرض ، لأن ما في الدنيا من مقومـات المادية الهائلة سـلاح خطـير إذا سـبق إليه أهل الضلال وظفروا به كان وسيلة فعالة للتحكم في الناس وإفساد دينهم ودنياهم)) صفوة الآثار والمفاهيم (1/79) ، إنه لا بد لنا أن نهتف بكل داعية (خذ الإسلام كله ، خـذه عقيـدة وعملاً وعبادة وجهاداً واجتماعاً وسياسة واقتصاداً وغير ذلك ، خـذه من كل الوجوه كما قال سبحانه وتعـالى ﴿يا أيها الـذين آمنـوا ادخلـوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مـبين﴾ البقرة [143] مجموع فتاوى ابن باز(1/346،345) .

وهنــاك أعمــال خيرية كثــيرة ينتــدب بعض الأخيــار للقيــام بها والرعاية لها لكنهم يخطئـون عنـدما يظنـون أن الإسـلام هو هـذه الأعمال التي يقومـون بها ، وأن خدمة الـدين تنحصر في الجهـود التي يبذلونها ، ومن ثم يطلقون لسـان النقد وربما الثلب في كل عامل في غـير ميـدانهم ، وكل منشـغل بغـير أعمـالهم ، فهـؤلاء مخطئـــون ونحن نقـــول لهم : على رســـلكم فليس الأمر كما تفهمون ، ونقول لمن يخالف هذا الـرأي ليطمئن ويفهم : ((إننا لا ننكر الخير الـذي يـذهب إليه بعضـهم ، إنما ننكر فهمهم القاصر ، ويعدهم عن الشمول ، نخشى أن يحرفوا الدعوة عن شمولها إذا عملوا في داخلها ، إن خطتنا تشـيع الفقه وتـربي بالتعبد ، وتحث على التمسك بآداب السنة، وتتنـاول بعض العمل الخـيري وتعتمد القوة ، ولكن بمقـدار الحاجة ، أو بمقـدار ما نملك من طاقة في تـوازن وتـدرج ، وبحكمه وموعظة حسـنة ، وفي جو من التـآخي والتحـــاب)) المســـار (ص:109) وتحت الضـــوابط الشـــرعية المستنبطة من آيات القرآن والسنة النبوية .

فلســنا نعيب العمل ما دام من أعمـال الإسـلام لكننا نعيب جعل هذا العمل هو الإسلام كله والدعوة كلها ، فالجهاد عمل إســلامي ، ولسنا مع من يرى أن حلول مشكلات الأمة الإسلامية ، وتحـول أحـــوال المســـلمين ، والصد لأعـــداء الـــدين كلها في الجهـــاد العسكري وحده ، وأن المنشغل بتعليم الكتاب والسنة أو تصحيح الانحراف والبدعة وغير ذلك من الأعمال لا أثر له ولا نفع فيه .

3- وسطية الإسلام :

((ضـاع هـذا الـدين بين الغـالي فيه والجـافي عنـه)) هـذه عبـارة مشهورة تـبين خطر البعد عن الوسـطية الـتي هي أبـرز سـمات الأمة الإسلامية كما قال رب البرية ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسـطاً﴾

الإسلام وسط فلا إفراط ولا تفريط .

وسط فلا طغيان ولا نقصان .

وسط فلا تشدد ولا ترخص .

وسط بين رعاية حقـوق الفـرد على حسـاب الجماعة ، أو العناية بمصالح الجماعة على حساب الفرد .

وسط بين العقلانية الملحــدة الــتي لا تــؤمن بغيب ، وبين الغيبية المفرطة التي تؤمن بالخرافة وهكذا .

الوسطية تعني العدل فلا يظلم جـانب على حسـاب جـانب آخر ، والوسطية تعني التوازن فلا يختل أمر على حساب آخر .

والإسلام وسط بين اليهود الذين عرفوا الحق وجحدوه ، والنصارى الذين ضلوا عن الحق ولم يعرفوه ، لأن المسلمين عرفوا الحق فاتبعوه .
والإسلام وسط بين اليهود الذين قتلوا الأنبياء ، والنصارى الذين ألّهوهم ، لأن المسلمين وقروا الرسل ولم يعبدوهم .
والإسلام وسط بين اليهود الذين أسرفوا في التحريم ، والنصارى الذين أسرفوا في الإباحة ، والمسلمون اتبعوا الشرع الإلهي الحكيم الذي بعث الله به الرسول صلى الله عليه وسلم يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم الأعراف [157] .
وسطية الإسلام تعني بعمارة الدنيا لخدمة الآخرة ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار البقرة [201] وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا القصص [77] .
وهكذا وجه المصطفى صلى الله عليه وسلم سلمان الفارسي عندما قال : ((إن لبدنك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك (ضيفك) عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه)) أخرجه البخاري في كتاب الصوم ، باب من أقسم على أخيه يفطر في التطوع (الفتح 4/246) .

4- صلاحية الإسلام :

لابد للداعية أن يفهم هذه الحقيقة فهماً واعياً ، يستطيع معه أن يشيع هذه الحقيقة بين الناس فيجتهد في إبراز محاسن الإسلام وإثبات صلاحيته بالأدلة الشرعية ، والشهادات الواقعية .
فالإسلام حرم الربا كي لا يكون المال دولة بين الأغنياء ولكي لا يزداد الأغنياء غنىً والفقراء فقراً ، مما يكرس الطبقية ويزرع في النفوس بذور الشحناء والبغضاء .
والإسلام يحرم الزنا ويمنع من دواعيه فيحفظ المجتمع من ويلات الإباحية من ضياع الأنساب ، وشيوع الأمراض ، وانتشار الجرائم ، وشهادة واقع المجتمعات الغربية تشهد بذلك .
والإسلام يقيم الحكم المستمد من شرع الله ، المعتمد على الشورى ، القائم على العدل ، المستهدف سياسة الدنيا وصيانة الدين .

وهكذا في جـوانب الحيـاة كلها ينبغي إدراك هـذه الحقيقة وبيـان الوجه المشرق للحياة في ظلال الإسلام ، وأنها ((حيـاة لا شـرك فيها ولا وثنية بل فيها التوحيد الخالص والعبـادة لله الـذي تعنو له الوجوه .

حياة لا ظلم فيها ولا استبداد ، بل فيها حق وعدالة وحرية وإخــاء .

حياة لا جهل فيها ولا أمية ، بل فيها علم ومعرفة وحكمة .

حياة لا رفث فيها ولا فسوق ، ولكن فيها طهارة ونظافة وعفـاف .

حياة لا حسد فيها ولا حقد ، بل فيها محبة وتعاون ، وتآزر وتناصر .

حياة لا سرف فيها ولا ترف ، بل فيها بذل وكرم وإيثار .

حياة لا خمر فيها ولا قمـار ، بل فيها كـدح وعمل وطلب لما أحل الله (إسلامنا (ص:10-11) .

المبحث الثاني : مفهوم الدعوة :

مفـاهيم الـدعوة الـتي لا بد للداعية من اسـتيعابها كثـيرة ، وهي مفاهيم في غاية الأهمية والتأثير على تصرف الداعية وممارساته ، وارتباطه بالـــدعوة وإخلاصه لها ، واهتمامه بها ، واســـتمراره فيها ، وهذه خلاصة في أهم المفاهيم المتصلة بالدعوة :

1-مفهوم الحكم والحاجة :

1- ((إن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم)) ، لكنها فرض على الكفاية ، ((وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقـوم من الـدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره ، فما قام به غيره سقط عنه ، وما عجز لم يطلب به)) مجمـوع فتـاوى ابن تيمية (15/166) ، وينبغي أن لا نفهم فـرض الكفاية فهمـاً يـدعوا إلى التقـاعس أو التكاسل ، فالكفاية تحتــاج أن نفهمها فهمــاً صــحيحاً وذلك من جانبين :

الأول : فرض الكفاية يصح ((أن يقال إنه واجب على الجميع على وجه من التجوز لأن القيام بـذلك الفـرض قيـام بمصـلحة عامة ، فهم مطلوبــون بســدها على الجملة فبعضــهم هو قــادر عليها مباشرة وذلك من كان أهلاً لها ، والبـاقون وإن لم يقـدروا عليها قادرون على إقامة القادرين ، فمن كـان قـادراً على الولاية فهو مطلــوب بإقامتها ، ومن لا يقــدر عليها مطلــوب بــأمر آخر وهو

إقامة ذلك القــادر ، وإجبــاره على القيــام بهــا)) الموفقــات (1/114) ، وهكذا ففرض الكفاية يعم ويشمل ، ويتقسط ويتنزل حـتى لا يكـاد يبقي مسـلم إلا وعليه ما يجب عليه بعينه من أمر الدعوة أو لواحقها وتوابعها .

الثاني : حقيقة الكفاية على وجهها الشرعي غـير متصَّـور وجودها في الزمن المعاصر الذي كـثرت فيه الفتن ، وعظم الانحـراف ، واشتدت ضراوة الحرب على دين الله من أعدائه ، واسـتحكمت الجهالة به من أبنائه ، واتسع الخرق على الواقع ، هـذا مع ما هو معلـــوم من أحـــوال بلاد المســـلمين المغتصـــبة ، وأعراضـــهم المنتهكة ، وأمــوالهم المنتهبة دون أن يكــون في مجمــوع الأمة من يرد هذا العدوان ويدفع عن إخوة العقيـدة والإيمـان ، فيبقى الأمر حينئذ ظاهر الوجوب شديد الحاجة .

2- الحاجة إلى الدعوة ملحة وشديدة بسبب تردي الأحوال في بلاد المسلمين أفراداً وجماعات وشعوباً وحكومات ، إذ أن أعـداءهم حرصـــوا ((على أن تغمر موجة هـــذه الحيـــاة المادية بمظهرها الفاســـدة وجراثيمها القتالة جميع البلاد الإســـلامية)) مجموعة الرسائل للبنا (ص:220) ، ((ومن الحق أن نعـترف بـأن موجة قوية جارفة وتياراً شديداً دفاقاً قد طغى على العقـول والأفكـار في غفلة من الـزمن ، وفي غــرور من أمم الإسـلام وانغمـاس منهم في الـترف والنعيم ، فقـامت مبـادئ ودعـوات ، وظهـرت نظم وفلسفات ، وتأسست حضـارات ومـدنيات ، ونافست هـذه كلها فكــرة الإسـلام في نفـوس أبنائهـا، وغـزت أممه في عقر دارها ، وأحـــاطت بهم من كل مكـــان ، ودخلت عليهم بلـــدانهم وبيوتهم ومخادعهم ، بل احتلت قلوبهم وعقـولهم ومشـاعرهم)) مجموعة الرسائل للبنا (ص:306).

ونظراً ((لانتشار الدعوة النصرانية في الكثير من البلـدان ، وغـير ذلك من الدعوات المضللة ، نظراً إلى هذا فإن الدعوة إلى الله عز وجل اليوم أصبحت فرضاً عاماً وواجبـاً على جميع العلمـاء ، وعلى جميع الحكـام الـذين يـدينون بالإسـلام ، فـرض عليهم أن يبلغوا دين الله حسب الطاقة والإمكـــان بالكتابة والخطابة وبكل وسيلة استطاعوا ، أن لا يتقاعسوا عن ذلك ، أو يتكلـوا على زيد وعمـرو ، فـإن الحاجة بل الضـرورة ماسة اليـوم إلى التعـاون والاشتراك والتكاتف في هذا الأمر العظيم))وجوب الـدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة (ص:20-21) .

فليست الــدعوة إذن حاجة عارضة ، أو مطلبــاً محــدوداً بل هي أعلى وأسـمى وأعظم أهمية من التصـورات السـاذجة والأفهـام القاصرة ، وليس تركها والتخلي عنها أمـراً هينـاً بل ((تـرك أهل العلم لتبليغ الدين كترك أهل القتال للجهـاد ، وتـرك أهل القتـال للقتـال الـواجب عليهم كـترك أهل العلم للتبليغ الـواجب عليهم))مجموع فتـاوى ابن تيمية (28/188) ، وتصـور حـال الأمة إذا تخلت الجيوش المدافعة عنها عن مهمتها .

هذا الفهم مهم جـداً ((فإنه بقـدر إيمـان الداعية بدعوته ، وتفهمه لضرورتها وحاجة الناس إليها ينجح في دعوته ، وبقدر ضعف هذا الإيمان ، والنظر إليها بأنها مهمة ثانوية يتهاون فيها ، ويتكل فيها على غــــيره ، ويتعــــثر في طريقه ويعطيها من فضل وقتــــه)) المدخل إلى علم الدعوة (ص:155) .

2- لوازم الدعوة : مستلزمات حمل الدعوة كثيرة ومنها :

1- فهم حقيقة الواقع المعاصر :

في الواقع المعاصر هجوم سافر، وعـداء ظـاهر، وتخطيط مـاكر، ضد الإســلام والمســلمين ، وهنــاك وســائل عديــدة تســتخدم لإضعاف المسلمين واستمرار بعدهم عن أسباب القوة المادية .

هناك وسائل الإعلام وما يبث فيها ((من تمثيل الأخلاق السـافلة ، والمرائي الفاتنة ، والصور الخليعة ، وشـبه العاريـات ، والخطب الهدامة ، والمقالات الكفرية ، والترغيب في مشابهة الكفـار في أخلاقهم وأزيائهم ، والاحتقار لعلماء المسلمين وأبطـال الإسـلام وتمــثيلهم بالصــور المنفــرة منهم ، والمقتضــية لاحتقــارهم ، والإعراض عن سيرتهم ، وبيان طرق المكر والاحتيـال والسـلب والنهب والسـرقة وحياكة المـؤامرات والعـدوان على النـاس)) مجمــــوع فتــــاوى ابن بــــاز (3/228) ونحو ذلك من العظــــائم والدواهي .

وهنـاك الآن البث المباشر الـذي ينقل لنا عـبر الفضـاء الفضـائح والفظائع وما ينـدى له الجـبين من عـري كامل ، وخلق سـافل ، وفكر خبيث .

وهنـاك الغـزو الفكـري ((وهو داء عضـال يفتك بـالأمم ويـذهب شخصيتها ، ويزيل معاني الأصالة والقوة فيها ... وهذا الغـزو يقع بواســطة المنــاهج الدراســية والثقافة العامة ووســائل الإعلام والمؤلفات الصغيرة والكبيرة وغـير ذلك)) مجمـوع فتـاوى ابن باز (3/438) .

كل ذلك يصب على المسلمين ليخرجوا عن دينهم ، ويخرجـوا من طاعة ربهم ، ومع ذلك نـرى من يخـدرهم ليـألفوا ، ويخـدعهم ليقبلوا ، ويدلس عليهم ليقتنعوا وينطلقوا غير شاعرين بإثم ، ولا مـدركين لخطـورة ، وهـذا مكر اعظم وأخطر حيث ((نـرى شياطين الإنس والجن يسمون الفساد إصلاحاً ، والمؤامرات والفتن ونقض العهـود تحـرراً ، وخيانة الله بنبذ ملة إبـراهيم وطنية ، وارتكاب الفواحش مدنية ، والدياثة والقـوادة حضارة وتطوراً، واطراح الدين ونبذ القرآن رقياً ومسايرة للزمن)) صفوة الآثار والمفاهيم (1/30)، فهم ذلك كله وتصوره يجعل الداعية مدركاً لعظمة مهمته، وأهمية دعوته.

2- التفاعل مع الدعوة :

إن إدراك حكم الـدعوة والحاجة إليها ، ومعرفة الواقع ينتج عنه أمران مهمان :-

الأول : الحماسة والقوة في حمل الدعوة

((إن الداعية يجب أن يشعر بأن دعوته حية في أعصابه ، متوهجة في ضميره ، تصيح في دمائه فتُعجله عن الراحة (الدعـة) إلى الحركة والعمل ، وتشغله بها في نفسه وولـده وماله ، وهـذا هو الداعية الصادق الـذي تحس إيمانه بدعوته في النظـرة والحركة والإشارة ، وفي السمة التي تختلط بماء وجهه)) تـذكرة الـدعاة للخولي (ص:34) .

ويتـذكر الداعية عظمة الأمانة في حمل الرسـالة ﴿إنا عرضـنا الأمانة على السـماوات والأرض والجبـال فـأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ الأحزاب [72] ، وما تقوم الدعوات ولا تبلغ الرسالات بالضعف والتباطؤ فقد خـاطب الله يحي عليه السـلام فقـال ﴿يا يحي خذ الكتـاب بقوة﴾ مريم [12] ، والمصطفى صلى الله عليه وسلم خاطبه مولاه بقوله﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ المزمل [5] .

إن الدعوة ليست خطباً تلقي ، ولا مقالات تدبج ، ولا كتباً تؤلف ، إنها قبل ذلك همٌّ يـؤرق وحماسة تـدفع ، وهمة ترفع ، ووقـود محرك لا ينفذ .

إنها جـدٌّ لا يجتمع معه كسل كما أبى ذلك الداعية الحر عطـاء بن أبي ربـاح حين قـال : ((لأن أرى في بيـتي شـيطاناً خـير من أن أرى فيه وسادة لأنها تدعو إلى النـوم)) البداية والنهاية (9/308) .

إنها سـفر نحو آفـاق أرقى وأعلى ، وعمل وبـذل طموحه أفضل وأسمى ، فالدعاة الحقيقيون ((مذ تيقظوا ما نالوا ، ومذ سـلكوا ما وقفوا ، فهمُّهم صعود وترقٍّ ، كلما عبروا مقاماً إلى مقام رأو نقص ما هم فيه فاستغفروا)) صيد الخاطر (ص:355) ، وذلك لعلمهم أن ((الطريق الموصلة إلى الحق سبحانه وتعـالى ليست مما يقطع بالأقـدام ، وإنما يقطع بـالقلوب)) صـيد الخـاطر (ص: 355) .

إنها نفـوس خالصـها شـعور بالمسـئولية وجسـامتها ، والمهمة وضخامتها ، فأبت على الأجسـاد أن تخلد إلى راحة ، وإلى النفـوس أن تسـكن إلى لهو ، ولله در ابن الخطـاب عنـدما جـاءه معاوية بن خـديج مبعوثـاً من عمـرو بن العـاص بخـبر فتح الإسـكندرية فقـدم المدينة في الظهـيرة ومكث في المسـجد فرأته جارية لعمر ، ثم جاءته فقالت : أجب أمير المؤمنين ، فلما دخل وأكل قال له عمر : مـاذا قلت يا معاوية حين أتيت المسـجد ، قـال : قلت : إن أمـير المؤمـنين قائل ، قـال عمر : بئس ما قلت أو بئس ما ظننت لئن نمت النهار لأضيعن الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي فكيف بالنوم مع هـذين يا معاوية (الزهد لابن حنبل (ص:152) . تلك رعية عمر ما تركت له ليلاً ولا نهاراً ((والداعية مسئول عن رعيته ، فـإذا غاب عنها فقد تخلى عن واجبه وعرض أمته لعبث المبطلين وغواية الشياطين)) تذكرة الدعاة(ص:210) .

لذا على الداعية أن يحمل الدعوة ((بهمة عالية وعزم قـوي لا يثنيه عنه كـثرة خصـومه مهما تكـالبت عليه قـوى الشر إذ لا يعتبرها في جنب الله إلا كالفراش)) صفوة الآثار والمفاهيم (1/72) .

الثاني : التصدي والمواجهة :

ما دام قد أدرك الداعية واقعه ، وحمل دعوته بقـوة ، وانـدفع إليها بحماسة فإنه لا بد أن يتصدى لأعداء دعوته ، وأن يواجه المتربصين بها الدوائر ، وأن لا يترك لهم ميـداناً إلا نـازلهم فيه ، ولا وسـيلة إلا نافسـهم عليها ، ولا بلـداً إلا وجـابههم فيها ، لقد تفنن الأعـداء في حـرب الإسـلام والـدعوة واعتمـدوا ((سياسة محاربة المسـاجد بـالمراقص ، ومحاربة الزوجـات بالمومسـات ، ومحاربة العقائد بأستاذة حرية الفكر ، ومحارة فنون القوة بفنـون اللـذة)) من وحي القلم للرافعي ، نقلاً عن المنطلق (ص:54) ، لذا يلزم الـدعاة أن يـدركوا أنه لا بد لهم في مواجهة تلك التيـارات من محاربة علمية دقيقة شـاملة لأن التيـارات غـزت الأدمغة باسم العلم والفن

فمقابلتها بغيره شطط لا يجدي نفعاً ، فلا بد من تكـريس جهـودهم لمقاومة المــذاهب الفكرية مقاومة علمية عميقة ، ونقــدها نقــداً مفنداً دامغاً ، وأن يقابلوا كل مؤسسة بمثلها مما يعارضها وينقضها ، فيقـــــــابلوا المدرسة بالمدرسة والجامعة بجامعة ، ودور التربية والحضانة بمثلها ، والمعاهد والمجامع العلمية المادية بما يقابلها من المعاهد الإســـلامية ، ومعاهد التربية الحديثة المادية بمعاهد تربية روحية تفوقها ، ويقابلوا النـوادي الثقافية الناشـفة من الـدين بنـواد أخرى مشبعة بروح الدين ، ويقـابلوا المكتبـات المادية أو المكتبـات المؤسس بعضـــها أو أكثرها لخدمة المـــذاهب الفكرية والمبـــادئ العصبية الجاهلية المجددة بمكتبات تخدم العقيدة الإسـلامية وتـروج كتبها بأحـــدث وســيلة وأرخص ثمن ، ويقـــابلوا الصـــحف المادية والمغرضة بصحف دينية فيها تركيز العقيدة وفضح الباطل ، وإظهار عـــورات أهله ، ويقــابلوا الإذاعـــات المغرضة وســائر الإعلام من القصص والمجلات وأشــــرطة الأفلام وغيرها بإذاعـــات ووســـائل إعلامية أخرى توجه النـاس إلى الحق ، وتضـبط عقـولهم وأوقـاتهم وتحفظها من ســرقة شــياطين الإنس والجن واختطافها ، وهكـــذا فليقابلوا كل وسيلة هـدمٍ بوسـيلة بنـاء (صـفوة الآثـار والمفـاهيم (1/145-146) .

ج- التعاون على الدعوة :

يقول الله تعالى وتعاونوا على البر والتقـوى ولا تعـاونوا على الإثم والعدوان المائدة [2] ، ومن مستلزمات الإسلام التعاون مه أهل الإيمـان ، ومن فهم ما أسـلفناه من كيد الأعـداء أدرك أن التعـاون أمر لا بد منه في مجال الدعوة .

ولمزيد من لإيضاح أشير إلى عـدد من المفـاهيم الـتي تزيد القناعة بالتعاون وتبين الخسارة في تركه .

أولاً : تعدد المجالات

إن الـدعوة ليست محصـورة في مجـال معين أو وسـيلة واحـدة بل هي ميـدان رحب ، ووسـائل شـتى ، وذلك يعـني أنه لا بد من بـذل جهود عظيمة ولا بد من إدراك أن الداعية مهما تعددت مواهبه فإنها تقصر عن الإبــداع والإتقـان في كل مجــال ، فهنـاك من يسـتطيع الخطابة ويجيـدها ، وهنـاك من يحسن التـأليف ويتقنه ، وهنـاك من ينشر العلم ويدرسه ،وثمة من يعرف العمل السياسي ، وآخر يبـدع في العمل الخيري ، وهكذا ولا يتصـور أن تغطى هـذه المجـالات إلا باستفراغ كل داعية جهده في مجال إتقانه ليحصل التكامل ، ورحم

الله الإمام مالك أمام دار الهجرة الـذي نصب نفسه في ميـدان من أعظم ميـــادين الـــدعوة وهو نشر العلم الشـــرعي فكتب إليه من يـــدعوه إلى غـــير ذلك فقـــال : ((إن الله قسم العمـــال كما قسم الأرزاق فـــرب رجل فتح له في الصـــلاة ولم يفتح له في الصـــوم ، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الجهاد ، فنشر العلم من أفضل أعمال البر وقد رضيت بما فتح الله لي فيه ، وما أظن ما أنا فيه بـــدون ما أنت فيه ، وأرجو أن يكـــون كلانا على خير وبر)) نزهة الفضلاء (2/625) .

ثانياً : قلة الإمكانيات

لا يشك أحد أن الأمة الإسلامية تعاني اليـوم من قلة الـدعاة وكـثرة المنكرات ، وغلبة الجهل مما تحتاج معه إلى جهـود ضـخمة لإصـلاح الأحـوال وليس هنـاك الإمكانيـات اللازمة الكافية لهـذه الحاجـات ، وإذاً فلا بد من التعاون لاستثمار هذه الإمكانيـات بأقصى ما يمكن ، والإفادة من التجارب ، وتبادل الخبرات وما لم تكن نفسية التعـاون موجودة فإن كثيراً من الخير يفوت .

ثالثاً : خذلان الأعداء

أعـداء الإسـلام من قـديم الزمـان كـان من أعظم مقاصـدهم بث أسـباب الشـقاق ، وزرع بـذور الـنزاع بين المسـلمين عمومـاً ، وأعيـانهم من العلمـاء والـدعاة خصوصـاً ، وهـذا يحقق لهم من الأهداف والغايات ما لا يستطيعون بلوغه بجهدهم وكيدهم ، ذلك أن الهـدم من الـداخل أشد فتكـاً وأعظم ضـرراً ، ولـذا كـان خطر المنافقين أكبر وأظهر ، وإن عدم إدراك هذه الحقيقة يجعل الداعية يخـالف إخوانه من الـدعاة لأي أمر عـارض ، أو خلاف في أمر مما يسوغ فيه الخلاف ، أو تحمساً لفعل لم ير غيره أنه يناسب في هذا الـوقت ونحو ذلك ، فيسـعى حينئذ إلى مواجهة إخوانه الـدعاة بـدلاً من أعداء الله ، ويتفرغ لتسقط أخطائهم ، وتتبع عـثراتهم ، فيفـرح بـذلك أعـداء الله بل إنهم يسـعون لـذلك ويثيرونه ، فعلى الداعية الحصيف أن يفوت عليهم الفرصة وأن يخـذلهم باتبـاع الحق ، وفهم حقيقة الاختلاف المبـــني على الاجتهـــاد وإحســـان الظن بإخوانه ، والتماس العذر لهم ، والحرص على حماية أعراضـهم ، وسـمعتهم ، والحـرص على التعـاون ، وإشـاعة الخـير ، وله في ذلك نمـاذج من الأئمة والعلماء ، فهذا الإمام أحمد بن حنبل جـاء في سـيرته أنه إذا

بلغه عن شخص صـلاح أو زهد وقيـام بحق واتبـاع لأمر سـأل عنه ، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة ، وأحب أن يعرف أحواله .
وهذا الشافعي ينـاظر يونسـاً الصـدفي فيختلفـان ويفترقـان ، قـال يونس : فلقيني (أي الشافعي) فأخذ بيدي ثم قال : يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانـاً وإن لم نتفق في مسـألة (نزهة الفضـلاء (2/734) .
وهـذا ابن المبـارك سـمع رجلاً ينـال من آخر وينتقـده فقـال له ابن المبارك : هل قاتلت الترك ؟قال: لا، قال :فهل قاتلت الفرس؟قال :لا، قـال:فهل قـاتلت الـديلم؟ قـال:لا ، قـال :أفيسـلم منك الـترك والفرس والديلم ولا يسلم منك أخوك المسلم ؟

إذا ما بدت من صاحب لك زلـة فكن أنت محتالاً لزلته عـذراً

أحب الفتى ينفي الفـواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقـراً

سليم دواعي الصدر لا باسط أذى ولا مانع خيراً ولا قائلٌ هجراً

إن في أعــدائنا كفاية لاســتنفاذ جهودنا في حــربهم ، ومــواجهتهم فكيف نغفل عن هذا ونوجه سهامنا لبعضنا .

ولم أرَفى الخطوب أشد هولاً وأصعب من معاداة الرجال

وبعض المنتسبين إلى الدعوة إذا تعامل مع الدعاة كان فظاً غليظـاً ، ومخالفاً عنيداً ، وإذا تعامل مع العصاة كـان لينـاً رفيقـاً ، ومؤلفـاً رقيقاً .
ومن أســباب امتنــاع التعــاون وحصــول ما يضــاده ضــعف الفقه لموضــوع الاختلاف وما يســوغ منه وما لا يســوغ ، وما ينكر وما لا ينكر ، وما يسع المختلفين أن يتعــاونوا وإن لم يتفقــوا عليه وما لا يسعهم معه التعاون ولذا لا بد من العناية بهذا الجانب وفهمه .
ومن الأسـباب أيضـاً التعصب للموافق ، والتحـزب ضد المخـالف ، وهذا لا يليق بالمسـلم فضـلاً عن الداعية ، لأن المطلـوب منه ((أن يدعو إلى الإسلام كله ، ولا يفـرق بين النـاس ، وأن يكـون متعصـباً لمذهب دون مذهب ، أو لقبيلة دون قبيلة ، أو لشيخه ، أو رئيسه أو غير ذلـك)) .((وليس للمعلمين أن يحزبـوا النـاس ويفعلـوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البر والتقوى، كما قـال تعـالى ﴿وتعـاونوا على الـبر والتقـوى ولا تعـاونوا

على الإثم والعدوان وإذا اجتمعوا على طاعة الله ورسـوله وتعـانوا على البر والتقوى لم يكن كل أحد مع أحد في كل شيء ، بل يكون كل شخص مع كل شخص في طاعة الله ورسوله ، ولا يكونــون مع أحد في معصـية الله ورسـوله ، بل يتعـاونون على الصـدق والعـدل والإحسـان والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر ، ونصر المظلــوم وكل ما يحبه الله ورسـوله ، ولا يتعـاونون لا على ظلم ولا عصـبية جاهلية ، ولا اتبـاع الهـوى بـدون هـدى من الله ، ولا تفـرق ولا اختلاف)) مجموع فتاوى ابن تيمية (28/15) .

فعلى العاملين في مجال الـدعوة أن يفطنـوا لـذلك فلا يقومـوا بما يوهن صفوف الدعاة ويوغر صدورهم ، ويثير بينهم أسباب الفرقة .

د- الابتلاء وطول الطريق :

ليست طريق الدعوة مفروشة بالورود ، وليست سهلة الـورود ، ولا قريبة المنتهى ، بل كما قـال تعـالى أم حسـبتم أن تـدخلوا الجنة ولما يـأتكم مثل الـذين خلـوا من قبلكم مسـتهم البأسـاء والضـراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه مـتى نصر الله ألا إن نصر الله قـريب البقـرة [214] وقـال تعـالى أحسب النـاس أن يـتركوا أن يقولـوا آمنا وهم لا يفتنـون ، ولقد فتنا الـذين من قبلهم فليعلمن الله الـذين صـدقوا وليعلمن الكـاذبين العنكبـوت [2-3] ، وإنها سـنة إلهية ماضـية ما كـان الله ليـذر المؤمـنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب آل عمران [179] .

وسـئل الشـافعي : أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى ، فقـال :لا يمكن حتى يبتلى ، فإن الله ابتلى نوحـاً وإبـراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صـلوات الله وسـلامه عليهم أجمعين فلما صـبروا مكنهم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة .

وطريق الـدعوة طويل ((ومن اسـتطال الطريق ضـعف مشـيه)) ، فلا بد من الصـبر على البلاء وطـول النفس ، وإدراك أن الزمن جزء من العلاج .